ثنائية الرموز

تحتل النخلة في نفس الحضري ذات المكانة التي تحتلها الإبل في نفس البدوي. إلا أن انتماء البعير إلى عالم الحيوان يجعله أقرب إلى الإنسان من النخلة التي تنتمي إلى عالم النبات. يتفوق البعير على النخلة في وظيفته الرمزية المحملة بالمعاني والدلالات مما حوّله من مجرد كائن حي إلى مركّب ثقافي بالغ الأهمية، كما يشهد على ذلك تغلغله في الموروث الشعري العربي، فصيحه ونبطيه، وبالثقافة البدوية عموما بشكل لا مثيل له بالنسبة لأي كائن آخر. إضافة إلى منافعها العملية وفوائدها المادية تحتل الإبل حيزا كبيرا وعميقا في ذهنية ابن الصحراء ومخيلته مما له بالغ الأثر في طريقة تفكيره وفي توجيه نظرته للأمور وتصوراته للكون من حوله.

الغرس والذود

يتجلى تمايز البدو والحضر في الرموز التي يتخذها كل منهما كمحددات لهويته. فالبدو، في النموذج الخلدوني، هم أهل الوبر، أي بيوت الشعر المتنقلة، والحضر هم أهل المدر، أي بيوت الطين الثابتة. أما في النموذج المحلي فإن رمز البداوة ومصدر عزة البدوي هي الإبل، بما تمثله من حركية وتنقل واستقلال عن سلطة أي حاكم أو دولة. أما رمز الحضارة الزراعية ومصدر عزة الحضري فهي النخلة، بما تمثله من استقرار وثبات ورسوخ واستمرارية في العطاء. هذان الرمزان المحليان، الذود والغرس، يختزلان الفروق بين البداوة والحضارة في النموذج المحلي ويحصرانها في التخصص الإنتاجي الذي يتمثل إما برعي الإبل أو غرس النخيل. هنا يتحول الفرق بين البداوة والحضارة إلى اختلاف في وسائل الإنتاج وإلى شكل من أشكال التخصص وتوزيع العمل، فهناك أعمال تتطلب الاستقرار وهناك أعمال تتطلب الترحال.

تدل اللقى الآثارية التي عثر عليها في مناطق مثل قرية الفاو ويثرب والعلا وفدك (الحائط) وخيبر وتيما ودومة الجندل أن حضر الجزيرة العربية كانوا منذ العصر الحجري يشتغلون بحراثة الأرض وزراعتها. تنتشر القرى الزراعية على سفوح الجبال وفي الشعاب حيث تتجمع مياه الأمطار المنحدرة من الأعالي، كما هي الحال بالنسبة لجبال طويق وجبال أجا وسلمى، وعلى جنبات الوديان الكبيرة مثل وادي فاطمة ووادي حنيفة ووادي الدواسر ووادي الرمة، وغيرها (Wallin 1979: 198-9). يجرف الوادي في جريانه التربة الخصبة فيودعها على ضفتيه كما تنساب مياهه إلى أسفل من خلال التربة والصخور المسامية لتتجمع تحت سطح الأرض في مصائد صخرية أو غرينية. ويحفر الفلاحون آبارا عميقة للوصول إلى الماء الذي يجذبونه لري زراعتهم بواسطة السواني. إلا أن مناخ الصحراء بجفافه وحرارته يجعل من

الزراعة عملا شاقا ومكلفا ومردوده ضئيل. قسوة المناخ وشح المياه وبساطة التكنولوجيا والاعتماد كلية على الطاقة الحيوانية والبشرية تقوم عوائق تحد من حجم الفلاحة وتحول دون زراعة مساحات كبيرة. إنتاج المساحات الصغيرة المزروعة لا يكاد يكفي حاجة الإنسان وليس هناك فائض طاقة لإنتاج غذاء حيواني. الفلاح سيضطر إلى أن ينتج بنفسه وفي مزرعته علف الحيوانات التي يقتنيها، لذا يقتصر جهده في تربية الحيوانات على الحد الأدنى والضروري الذي يحتاجه في أعمال المزرعة من إبل للسواني إلى حمار للنقل والمواصلات إلى بقرة أو اثنتين للحصول على الزبد والحليب ومشتقاته. يكرس الفلاحون جهدهم لإنتاج ما يحتاجه الإنسان من الغذاء النباتي والتمور والحبوب بينما تترك للبدو مهمة الإنتاج الحيواني من أغنام وإبل وخيول، أي أن البدوي والفلاح لا غنى لأي منهما عن الآخر. هذا التكامل الاقتصادي القائم على التخصص الإنتاجي والاعتماد المتبادل بين البدو والفلاحين هو الطريقة الأمثل للتكيف مع إيكولوجيا الصحراء وبيئتها الشحيحة.

وقد ساهم استئناس النخلة منذ حوالي ٨,٠٠٠ ثمانية آلاف سنة إلى انتشار الزراعة في المناطق الجافة لأن عروق النخلة تضرب بعيدا في أعماق التربة لتحصل على الرطوبة اللازمة. أي أن النخلة والبعير كلاهما كائنان صحراويان، فالنخلة مثلها مثل البعير تماما في قدرتها على التكيف مع مناخ الصحراء الجاف. ومن المؤكد أن اهتمام العرب بالنخلة موغل في القدم حيث تم استئناسها قبل البعير بما لا يقل عن ٤,٠٠٠ أربعة آلاف سنة. يقول الألوسي في حديثه عن الفلاحة "وهي من أسباب معايش العرب العامة، لا سيما سكنة اليمن والبحرين وعمان وهجر وغالب بلاد نجد، فسكنة هذه البلاد كلها غالب معايشهم من الحرث والغرس، ولهم في غرس النخيل اهتمام وأي اهتمام! وما ورد عنهم في شأنه كلام طويل، ومعرفتهم بشؤونه كمعرفتهم بالخيل" (ألوسي ٣/١٣١٤: ٤١٧). والمفاضلة بين الإبل والنخيل موضوع قديم حيث نجد في كتاب **ذيل الأمالي والنوادر** لأبي علي بن إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ما نصه:

> قال أبو علي: وحدثنا أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد قال حدثنا أبو حاتم عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: لقيت أعرابيا بمكة، فقلت له: ممن أنت؟ قال: أسدي، قلت: ومن أيهم؟ قال: نهدي، قلت: من أي البلاد؟ قال: من عمان، قلت: فأنى لك هذه الفصاحة؟ قال: إنا سكنا قطرا لا نسمع فيه ناجخة التيار، قلت: صف لي أرضك، قال: سيف أفيح، وفضاء صحصح، وجبل صردح، ورمل أصبح؛ قلت: فما مالك؟ قال: النخل، قلت: فأين أنت عن الإبل؟ قال: إن النخل حملها غذاء، وسعفها ضياء، وجذعها بناء، وكربها صلاء، وليفها رشاء، وخوصها وعاء، وقروها إناء (بغدادي ١٩٨٠/ب: ١٦).

وقد نشر الباحث الهولندي مارسيل كوربورسهوك بعض النصوص من الشعر النبطي موضوعها المفاضلة بين امتلاك الإبل وامتلاك النخيل (Kurpershoek 2002: 189-228). من هذه النصوص محاورة بين أخوين، بدوي وحضري. قال البدوي أبياتا

منها هذا البيت الذي يمتدح فيه أحد إبله بغزارة اللبن:

لي فـاطرٍ حـدبا القـرا مـسـمـيّـه يرويك من قـبل العَطيف وْشـالهـا[١]

فأجابه أخوه الحضري بقصيدة منها هذه الأبيات التي يؤكد فيها أن النخل أفضل لأنها توفر ظلالا باردا يقضي فيه وقت القيلولة ويشبه النخل بقوام الفتيات اللائي خضبن أيديهن بالحناء. ويحذر أخاه البدوي من لص يفك عقال ناقته ويسرقها في ليلة ظلماء لا يظهر فيها قمر:

قـال العـيـاضي الذي له غَـرْسـه حـدب الجـريد مـقـيّله بظْلالهـا
يامـا حـلا دَقْـلاتهـا في وسطهـا مـثل الصـبـايا خِـضّب الحنا لهـا
حـاذِر على فـاطرك حـايف ليله لى غـابت القـمـراَ يفك عْـقـالهـا

ورفع البدوي والحضري قضيتهما إلى أبيهما ليحكم بينهما فأنشد الأب قصيدة منها الأبيات التالية التي يوضح فيها الاعتماد المتبادل بين النخل والإبل وأن لا غنى لأحدهما عن الآخر. فالنخل تعتمد على الإبل في جذب الماء من الآبار لريها، كما أن الغرب يصنع من جلد البعير وكذلك السريح يقد منه. ويقول إنه بدون الإبل يستحيل السفر وتستحيل الزراعة. ويبين أن الناقة يتبين عشارها بعد أسبوعين من تضريب الفحل لها، ورؤية لقاح النوق التي بان عشارها منظر يبعث البهجة في النفس. ثم يبين مراحل نمو الحوار منذ أن تلده أمه حتى يحين وقت بيعه. ويوصفها حينما تعود من المرعى لترد الماء ويصف عملية السقي والسقاة. لكن الأب يستدرك في البيت الثاني عشر ليبين أن الإبل عرضة للنهب وللهلاك السريع في سنين الجدب " **الحلول**"، ولطالما أمسى صاحبها يتحسر على فقدها بينما الغازي الذي انتهبها يصبح جذلان فرحا بها " متبجّح". وامتلاك الإبل يتطلب امتلاك الخيل التي تعد من أهم وسائل الدفاع عنها وحمايتها من الغزاة. ويعود الأب ليؤكد أن سنين الجدب لو قضت على الإبل فلن تقضي على النخل الراسخة عروقها في أعماق التربة حيث تجد الماء وتقاوم الجفاف وتستمر في العطاء. كما يختلف النخل عن الإبل في أنه ليس عرضة لنهب الغزاة:

البل ياناجي تسـوق لْنا النخل وجلودها لِظْهـورها تِبّـاعِ
جْلودها تِجْـعل غـروبٍ للنخل تِظْهـر لك الجم من صليب القـاع
الغـرس لولا المسـمنات تْسـوقه كـان النخل مـثل الضـبـاع مـقـاعي
البل لولا البل غـدينا ضـاعـه كنا دراويشٍ طعـام سْـبـاع
البل لولا البل تحـاوسـوا العـرب ضـاقت على السـفّـار والزرّاع
يامـا حلى البل يوم هدّ ابْهـا الجـمل قـد هو لجْلْ عْـشـارها صـوّاع
اقـعـد سْـبـوعينٍ إلى من زرتهـا بـانت لك الحـايل من المقـراع
عـامٍ مـجـاريرٍ وعـامٍ درّها والعـام الاخـر حـاشيٍ ينبـاع

(١) **حدبا القرا**: ظهرها محدودب لكبر سنامها. **مسمية**: من سلالة مشهورة معروف اسمها. **العطيف**: الإدرار الغزير. **الوشال**: الإدرار القليل الذي يسبق العطيف.

ياما حلى البل يوم تِكْهِب عِرْفَه   لى سنّدت قعسٍ من المرباع
ياما حلى البل يوم تكها مارد   سرفاتها تغشّم على القرّاع
يِردّ ذي ويْهِد كل صنْخيفه   وتلقى لها من حوضها فرّاع
أويّها لولا حلولٍ شِفتها   تجعل حلال البدو منه اقطاع
أويّها لولا الهيام وشايه   وْصيحة غْصيرٍ ما لها فَزّاع
يمسي وراعيها بكبده كَيّه   ويصبح بها متبجّح الطمّاع
من كان يبغى البل يشري سابق   قبٍّ تعالج صرفة المصراع
ياحظ من هو له فسيلٍ ناعم   إلى غلى بْباب التجار الصاع
فْلانيب ذالّ ان الركاب تخزّها   ولا تضيع لى اخطا بهن الراعي
أمّا الغين في السنين المريفه   الراسخات الناعمات القاع
ياطول ما نزعب بها طول الدهر   لين اشترينا البل من بيّاع

ونشب خلاف بين جماعة ابن حصن، وهو من الدواسر الأقدمين، منهم من يقول بأن الإبل أطيب ومنهم من يقول بأن النخل أطيب. فرد عليهم ابن حصن مفضلا النخيل " غينا" الراسخة عروقها في جداول الماء الجاري. ويشبه رائحة اللقاح برائحة المسك والزباد، كما يشبه استدارة القنوان المحملة بالرطب في فرع النخلة باستدارة أسنان المحالة. ويوكد أن النخل بخلاف الإبل ليست لقمة سائغة للغزاة الذين يمتطون صهوات جيادهم ويختطفونها في ظلمة الليل. وهو يعتني بغرسه ليس طمعا في المال وإنما ليقدم ثمرتها " حثرها" للضيوف وأبناء السبيل. ويستدرك في آخر القصيدة ليعترف بأن اقتناء الإبل والعناية بها شرف كبير لكنه يستطرد في وصف المشاق التي يتعرض لها أصحابها في سقيها ورعيها ويبين المخاطر التي يواجهونها للدفاع عنها ضد الغزاة:

دايرت انا الناس لى كلٍّ له اجناس   ولكل نفسٍ هوى وشفوفها معها
كلٍ هوى باله وانا هوى بالي   غينا وربّي من السيّات يمنعها
هدب الجرايد وحملٍ دايمٍ زايد   وعبّابة العرق جدولها مشارعها
يازين لى جيت اناها في طرف يومٍ   لكن وصف الصفا صيفة مصنّعها
صفر الكرب كنها بالورس مطليه   كنك بزوليّة التاجر مقوبعها
بنّة لقاحه الى حوّل ملقّحها   بنّة زبادٍ ومسكٍ عند بايعها
شبّهت اناها الى حوّل معدّلها   محّالةٍ زيّن الصراف صانعها
ما دارها سرد خيلٍ في دهف ليل   ولا زَلْوَعَتْها السبايا من مراتِعْها
الغرس يبغي بني عمٍّ مناعير   بسيوف هندٍ وداودٍ مدارِعْها
نبغي حَثَرها لاهالي ضمّرٍ قود   قِد الهبايب من المنشا تزوزعها
البل سلاطين مال الناس واسياده   والله يلوم الصبي اللي يودّعها
البل تبي مايحٍ ومعدّيٍ فوقه   وْوَراه الاخر الى قادت يقرّعها
البل تبي راعيٍ ما هوب عجّاز   لى جات في عرفةٍ لي هو يونّعها
البل تبي لابةٍ للقفر نزّاله   لى جا النذر من حفيفٍ ما يْزَلْوِعْها

ومــــــخــــــيّـــــراتٍ مَعَ كل ابلـجٍ نـادر تسـمع ورا المنجـم الخـايف تهـوّعـهـا[1]
وعـــيـــال عمٍّ على قبٍّ عـــيـــاطيـــر عــجلٍ من اومــاي الايدي في ترايعــهـا

وهذه سـالفـة سـجلتـهـا من مـحـمـد ابن عطا من أهالي سكاكـا تبين لنا مـيـزة الحضـارة على البداوة بحكم ما يتعرض له البدوي من أخطار إما لأسباب طبيعية أو بسبب الغزو:

ناصر ابن قادر سكن باللقايط وصار راعي مناخ تجيه الغزوان والطراقي يضيّفهم ويزهّبهم. له خوي رويلي اسمه ناصر النجدي. والى غرّب الرويلي وشرّق، الى جت التشريقه، لهم وجهين الروله، يغرّبون ويشرّقون، والى شرّقوا، جوا من النقره، نقرة الشام، الرويلي يْحَزى رفيقه هذا ابن قادر، ناصر النجدي يقدّم عليه جمل محمّل حنطه وقهوه وكسوه له ولعياله ويصيّف عنده. والحضري الى منه اخذ عنده الرويلي له ايام وبغى يغرّب، يروح لهله البدوي، حمّل ناصر جْملُه لُه تمر من حلوة الجوبه. ومرّةٍ من المرّات طلب الرويلي انه يخاويه للبر يم هله، قال: اريدك تطلع معي هالنوبه يابن قادر ووعده انه يعطيه بعارين يسني عليهن. قال: انا ما اقدر اطلع معك واخلّي المناخ ما عنده احد وهالحين حنا بالشتا وبرد. قال: والله ما انهج الا انت معي، انت اطلع معي هالنوبه وان جازت لك البداوه تودع بعضك بدوي وبعضك حضري. بالاول عيّي ابن قادر لكن الرويلي لزّم عليه. ويقحص الرويلي ويترادف هو وايا ناصر ابن قادر. يترادفون الذلول ويجونك مغاريب من سكاكا ناحرين اهل الرويلي يم الحماد ويسوقون جمل الرويلي محمّلينه تمر. يوم انهم طلعوا على هالحماد والى والله ناطحهم غربيه ومعها طش مطر، برد يقص العظم. قال الرويلي: لى واحلولا يالبيت المثولث اللي ما ادري وش لونه وعنده له فرس تقيف على رجل والى روّح الطرش والى مير ثلاث رعايا وحده مغاتير ووحده صفر وزمل ورا البيت. قال ناصر ابن قادر: هاتها بقصيده لا تجيبها بسوالف. تكلم الرويلي لكن ما عندي من كلام الرويلي غير ثلاث بيوت او هن اربعه. يقول:

راكب اللي كنهـــا فـــرة الطيـــر تكصم عـــضـــود عْنانهـــا من سطرها
يا شـــافت اللي جـــافل من مـــحـــادير أو عين شـــيـــهـــان مع الريح يرها
صــاح المصـيـح فـوق روس القـعـامـيـر وتخـــاطفـــوا دروعـــهن من شـــهـــرها
ويامــا حلى خــزة ذويدٍ مـــعـــاشـــيـــر ونـزج مــن زيـن الـغـنـانـي بـاثـرهـا

رد ناصر ابن قادر:

قـــال الذي يبــدي حلي التـــفـــاســـيـــر وليـــا بغى زين المثـــايل وســـــرها
يامــا حلى صــفــة غــروب على بيـــر تســـمع نديب غـــروبهن بيظهـــرها
اكـــد واركض ناوي نيـــة الخـــيـــر ودنيـــاك مـــا احـــد عـــالم وش دُوَرها
وبنيت دارٍ منوةٍ للـخطـاطيـــــــر بيـــمـــفـــرق التلين كل خـــبـــرها
وغـــرست فـوقـــه مـيّـــتين على بيـــر والميّـــه الاخـــرى لحـــيقٍ باثرها
مـا زول مـا صـفّـوا علي الحـفـافـيـر يحـــرم علينا بيـــعـــة من ثمـــرها
ابي الى جـــونا ركـــيبٍ مـــعـــاييـــر اربع ليـــال مطبّلين سْـــفَـــرها

---

(١) **مقوبعها**: كاسيها ومغطّيها. **عرفة**: مرعى جيد. **يونّعها**: لا يعجلها في السير حتى تتأنى وتشبع من المرعى الجيد. **حفيف**: عدو. **يزلوعها**: يخطفها ويسوقها أمامه بسرعة مربكة. **مخيرات**: بواريد. **ابلج نادر**: رجل شجاع. **المنجم الخايف**: الراعي بمفرده في الخلا يطمئن عند سماعه أصوات بواريد قومه ويحس بالأمان.

يتــغــاورون البــاب مــثل الشنانيــر من الجــوع الاشــهب واردين خطرها
الشنانير طيور بس يتحاطفن ويتزبن الضلع.
كــدّي وركــضـي ناويٍ نيــة الخــيــر دنيــاك مــا احــدٍ عــارفٍ وش دورها
نبي نغــديهم غــداهم بتــصــخــيــر وليــا انتــووا نملى مــزاهب ســفــرها
اخــيــر عندي من مــتــال المظاهيــر واخــيــر من لاهه وعــالي قطرها
لاهه قارة بالحماد.
ولو تجــتــمع خلفــاتهــا والمعــاشــيــر وقــدحــانهــا عند الخطاطيــر ترهى
عــذروبهــا تغــدي بخــز القناطيــر يخلّون وغــدانك تقــاعى بحــجــرها
وان حل وقت الوسم مــا جــا شــخــاتيــر راعى الوديا ســـاقم من ثمــــرها
والبــدو عند الشين وقت المعــاســيــر كل يبــيّع سلعــتــه لو كــســرها
وكم واحــدٍ يودع دمــاغــه شــعــاثيــر ان جــا شــبــوب من الفــرنجي حــثــرها
بيــوسط ربعٍ تخلط الشــر للخــيــر عــيّــان مــا يدرى قــوادي خطرها
يوم وصلوا العرب وضافوا هكالليله وجا الصبح وشد على ذلوله قال: روح ياخويي -يقوله ناصر النجدي لناصر ابن قادر- روح ياخوي والله نريد ندوّر اهلنا. يوم قربوا حروة اهلهم نشد الرويلي عن هله وكل من ينشده: ما عينتوا هلي؟ قالوا: قدام. يوم جا اللي من تواليهم قالوا له: اهلك صبحوهم لهم قوم وتفّوا كل حلالهم وهذولا وغدانهم بلهم لهم عنّه، جاهم قوم، غزيّه واخذتهم، أخذت كيلهم واباعرهم وحلالهم. قال ناصر: هذا اللي انا كنت خايف منه. قالوا اهل هكالبيت للرويلي: ياولد لِم لك رْحَل شل بيت اهلك والله ما خلوا لك القوم اللي يهب الهوى من تحته غير ذلولك هاللي تحتك. جوهم غزو وسفّوهم، اما ناصر ما هو ناهج، يقعد عندنا، وانت انحر هلك وشل بيتك وتعال. نهج واخذ الرحلي من عربه وهو لك يشيل بيته قال: بوجههن لا تجدعون عنهن غير عند ناصر ابن قادر والله اني ما اتبع البدو على حياتي. وينزل عند ناصر لما ماتوا وادفنوهم اثنينهم بصف بعض، هذا قبر ناصر وهذا قبر ناصر.

ومن طرائف المقارنات في الشعر العربي تشبيه الإبل المحملة بالظعينة في سيرها بالنخل المثمرة، توحيد الرمزين؛ الإبل رمز البداوة والنخل رمز الحضر. يقول امرؤ القيس واصفا ظعينة المحبوبة المرتحلة ويستطرد في وصف النخل:

فــشــبــهــتُــهم في الآل لما تكَمّــشــوا حــدائق دَوْمٍ أو ســفــيناً مــقــيــرا
أو المكرعـــات من نخـــيل ابن يامن دوين الصــفــا اللائي يلين المُشَــقّــرا
ســوامق جــبــار أثيث فــروعــه وعــالين قنوانا من البُــســر أحــمــرا
حَــمَــتْــهُ بنو الربداء من آل يامن بأســيــافِــهم حــتى أقَــرّ وأوقــرا
أطافت به جــيــلان عند قطاعــه تردد فــيــه العين حــتى تحــيــرا

ويقول رميح الخمشي:

شــفت الظعــاين غلّسٍ حين راعــيت مــتــفــرّقــاتٍ كنّهن همّل الغــيــد

أما إذا كان الشاعر حضريا فلربما عكس الصورة وشبه نخله بالإبل كما في قول ناجي ابن كليب الدوسري من الأفلاج الذي يشبه نخله بقطعان الإبل التي وردت البئر والرعاة يحاولون صدّها عنه حتى لا تقع فيه ولا تتزاحم على الحوض:

ياغـــرس ياللـي بالفـــضـــا كنه اقطاع مــثل الجــهــام اللي على العِـد مــقــروع

لعلنا لا نبعد من الصواب إذا قلنا أن النخلة والبعير كلاهما رمز صحراوي؛ أحدهما يرمز للرعي والترحال في البوادي ولآخر يرمز للفلاحة والاستقرار في واحات الصحراء، الغياب الدائم والتنقل المستمر من مكان إلى مكان والحضور الدائم والمستقر في نفس المكان. كلاهما كائنان صحراويان متكيفان مع مناخ الصحراء الجاف. كلاهما كذلك موضوع شعري. هناك العديد من الأمثلة على تناول الشعراء للنخلة إما كموضوع فني أو من باب الإشارة لها في مجالات التشبيه والاستعارة والمجاز، مثلها في ذلك مثل الناقة. وكثيرا ما تتناوب النخلة والناقة في ملء ذات الخانة التشبيهية والمجازية في الشعر العربي. وقد تناول الأستاذ عبدالرحمن السويداء هذا الموضوع في كتابه عن النخلة العربية. وقد أورد السويداء عددا وافرا من الأمثلة الشعرية، بالفصحى والعامية، نتبين من خلالها مدى اهتمام الشعراء بالنخلة ومدى التشابه بين شعر الفصحى والشعر النبطي في هذا الخصوص. يقول السويداء:

> فشبهوا الأظعان بالنخيل إذا ظهرت عن بعد، وشبهوا الهوادج وعليها النساء الحسان بالنخيل الموقر بالعذوق الزاهية حمرة وصفرة؛ كما شبهوا شعر رأس المرأة بعثاكيل قنو النخلة، وانسياب الشعر وتدليه بعسيب النخلة. كما وصفوا تأود قوام المرأة وتغطرفه بالعسيب الغضة الطرية، وشبهوا ساقي المرأة وذراعيها بالجمار. كما شبهوا بها الكثير من عناصر الحياة الأخرى بما يفوق الحصر في هذا الحيز الضيق. ولم يكتفوا بذلك وإنما وصفوها وصفا دقيقا وإيراد بعض مسميات منها وعددوا منافعها ومزاياها من ظل ظليل وثمر يانع لذيذ يعتبر طعاما للمقيم وزادا للمسافر وعدوا منافعها وأبرزوا مكانتها في النفوس وقيمتها الاقتصادية (سويداء ١٩٩٣: ٣٩).

ويقول السويداء:

> بخصوص تناول شعراء النبط لموضوع النخلة أنهم تعرضوا لها في الأغراض التي تناولها أسلافهم في الشعر الفصيح، غير أنهم ركزوا بصفة أساسية على منافع النخلة ومدى ارتباط الإنسان العربي بالنخلة وترجموا حبهم لها وجسدوا مشاعرهم إزاءها بحرارة بالغة بالإضافة إلى وصف النخلة وصفا دقيقا وإيراد بعض مسميات منها وقد جاءوا بعناصر جديدة وهو وصف خد المرأة وبياضه بشق أو شقاق كافورة النخلة، كما شبهوا لبّة صدر المرأة ببياض الجمار، وكذلك ساقي المرأة وذراعاها بنصاعة الجمار وطراوته وكذلك رائحة المرأة برائحة شقاق الكافور ساعة ينفلق حيث تنتشر منه رائحة طيبة، زيادة على ما يبذله الإنسان في سبيل إكرام النخلة وما ترده النخلة على صاحبها من مكافأة مجزية كلما أكرمها (سويداء ١٩٩٣: ٨٧).

مثلما يتفنن البدوي في وصف الإبل يتفنن الفلاح في وصف النخلة والتغني بجمالها وتعداد منافعها، خصوصا ما يتعلق بالاستفادة من ثمرتها في سد حاجة المحتاج والقريب وفي إطعام الضيف وعابر السبيل. ومثلما تتعدد منافع الإبل متمثلة في صوفها وجلودها ولحمها وألبانها، تتعدد منافع النخلة متمثلة في تمورها التي يتغذى عليها الإنسان ونواها الذي يتغذى عليه الحيوان وفيما يوفره كربها وسنوخها

من وقود وما يوفره سعفها من مواد للبناء، وتفتل من ليفها وعذوقها (بعدما تُدق لتلين) الحبال وتخصف من خوصها السلال، وغير ذلك من الفوائد والمنافع. وتتميز النخلة عن غيرها من المحاصيل الزراعية بوفرة الإنتاج وهي لا تحتاج إلى عناية فائقة. وفي حديثه عن النخلة، يقول جواد علي:

> والنخلة هي من أقدم الأشجار التي احتضنها الساميون، ولعل الفوائد التي حصل الساميون عليها من هذه الشجرة، هي التي حملتهم على تقديسها وعدها من الأشجار المقدسة، فنجد النخلة مقدسة عند قدماء الساميين وعدوا ثمرها وهو التمر من الثمار المقدسة التي تنفع الناس (علي ١٩٩٣/١: ٢٠٨)

في كل ما تقدم وأوردناه من سوالف وقصائد تتعلق بمرافعات الغرس والذود وتحاجهما وتفاضلهما نلاحظ تكافؤ هذان الرمزان وتعادلهما بحيث يصعب تغليب أحدهما على الآخر، وهذا يعني، من ناحية، تكافؤ البداوة والحضارة وتعادلهما ويعني، من ناحية أخرى، اشتراكهما في قيميتين من أهم قيم الثقافة الصحراوية، ألا وهما قيمتي الشجاعة والكرم، الشجاعة في الدفاع عنهما والكرم في تقديم نتاجهما للضيوف. ويظهر هذا التكافؤ جليا إذا ما قارنا من يغرسون النخيل ويرعون الأبل بمن يربون الغنم. يشترك أهل الغرس وأهل الذود في ازدرائهم لمن يربون الأغنام. يقول فلاح الأشرم الرمالي في وصيته لابنه:

الى بغيت المال كثّر من البل عزّيل من لا حاش جل النيب
والى بغيت السكن والبنا كثر من مقاطير النخيل سهيب
والى بغيت الهون عليك بالغنم يا جن مرزمات السحاب صبيب

وهذا ردهان ابن عنقا بدوي آخر يخاطب إبنه بْنَيّان يقول إن الرجال الطيبين لم يعد لهم وجود ولم يتبقّ من الرجال إلا رجل بخيل يقوّس وديته، أي يقيس حجم ما يستخلصه من غنمه من زبد يتطلع لبيعها بثمن باهظ، أو رجل خامل "دب" لا يريد أن يخسر شيئا من ماله في طريق الجود والكرم:

بنيّان تنخاني تريد المعزّه ما باقيٍ كود الرجال البصاير
اللي يقوّس وَدْيته كل حَزّه إلا ودبٍّ ما يكوع الخساير

وحينما أراد حسن التبيناوي أن يمتدح فهاد ابن مسطح من الغفيله من شمر قال إنه ليس من الرجال الخسيسين "العفون" الذين يرقبون القشده، أي السمن المستخلص من زبدة الضأن، وينحصر همهم في تجميع السمن وبيعه ولا يأبهون بما يأبه به غيرهم من الرجال الذين يطلبون المعالي والشرف:

لى يابعد كل العفون العكاريت حظّاية القشده ليالي عَطاله
يا خلّصه ما هو بحال الهباريت اللي ببال الناس ما هو بباله

وأهل الصحراء الذين يقوم اقتصادهم على المبادلة العينية والمهاداة gift exchange المتمثلة في شعيرة الكرم يأنفون من ممارسة التجارة والتبادلات النقدية، ولا شيء يرجى من تربية الأغنام عدا الاتجار بها وبمنتوجاتها من صوف وسمن وإقط. هؤلاء،

كمـا سـبق وأن ألمحنا، ينبـغي أن تكف عنهم فنجـال القـهـوه ولا تقـدمـه لهم لأنهم لا يستحقونه، كما يقول مدوخ ابن العما ابن ظمنه المطيري:

كِـــقّـــه عن اللـي عند فـــرقـــه بشـــونـه يمسي ويصـــبـح ضـــابطٍ لك عَـــدَدْهـا[١]
علـى ربـوعـــــه طـايرات عـــــيـــــونـه ان بـاع شـــاتـه جـــاك حـــزّة وَعَـــدْهـا

مشتقات الضـأن تشبه العملة النقدية في كونها قـابلة للتجزئة والتخزين. فالسمن مثلا يمكن تجزئته حسب الحاجات إلى وحدات كبرى مثل الصاع أو وحدات صغرى مثل المد والنصـيف، والسـمن النقي لا يتعفن بسـهوله ويمكن حفظه لمدة طويلة. وهنا تكمن أهميته كوحدة تبادلية عوض النقد مقارنة بالمنتوجات الزراعية القابلة للعطب والتسوّس وسريعة التأثر بأحوال الجو، أو مقارنة بحليب الإبل الذي إن لـم يستـهلك في حـينه فـلا يمكن الاسـتـفـادة منه. في نهـاية الأمـر نجـد أن أهل الغـرس والذود مضطرون لبذل نتاجهم لأنهم لا يستطيعون الاحتفاظ به لمدة طويلة، على خلاف من يربون الضـأن. منتجات الأغنام، إضافة إلى قابليتها للاستعمال في أغراض متعددة، فـإنها قـابلة للتخزين بحيث يستطيع صـاحبـها أن يحتفظ بها لحين تضطر الحـاجـة طرف آخر لشرائها منه. هذا يجعل منها سلعا تجارية. أما منتجات الإبل والنخيل فـإن اسـتـخدامـها ينحـصـر في نطاقات ضـيقة وهي سـريعـة العطب نوعا مـا بحيث يضطر مالكها إلى تصريفها بسرعة، إن بالبيع أو بالهبة والبذل، أي منحها بسـخاء. لكنه بذل يترتب عليه التزامات على الطرف المسـتفيـد لصالح الطرف المانح. أي أن الكرم مهما بدا لنا أنه سلوك إيثاري هو في صميمه عملية تبادلية وشكل من أشكال السلوك الاقـتـصـادي. ولكن علينا أن نتذكر أن الغنم والإبل والنخيل كلها تسـتـخدم بشكل أو بآخر كوحدات تبادلية، لكن بينما تستخدم الغنم ومشتقاتها من سمن وإقط وصـوف كوحدات تبادلية في أمور عابرة وشؤون صغيرة، فإن النخيل والإبل تستخدم كوحدات تبادلية فقط في الشؤون والقضـايا المهمة والمصـيرية مثل الزواج والديات وأثمان الخيل، ومن هنا جاء ارتباط هذين الرمزين بالأرستقراطية والنبل.

الإبل كمركّب ثقافي وموضوع شعري

علاقـة الإنسـان العـربي مع الإبل عـلاقة مـركبـة وطويلة لكننا لـم نسبـر غورهـا حـتى الآن. حتى الآن لم نتفحص الإبل كمركّب ثقافي في علاقتـها مع ابن الجزيرة. إننا في الغالب نتحدث عن الإبل كمجرد كائن بيولوجي قابل للتشريح الفسيولوجي مستعص على الشـرح الأنثروبولوجي. لا ينبغي أن ننس أن الأدوار التي قـامت بها الإبل، سـواء في نشـر الرسـالة المحمدية أو في تأسـيس دعائم الدولة السـعودية الحديثة أدوار لا يسـتـهـان بهـا. والإبل، بعـيدا عن السـيـاسـة، هي التي أعطت للجنس العـربي هويتـه ورسخت وجوده، والأرستقراطية العربية في أسـاسـها أرستوقراطية بدوية. علاقة ابن

(١) كفّه: أي كف الفنجال ولا تناوله، شونه: عصاه الغليظة.

الصحراء مع بعيره تفوق في كثافتها وقيمتها ومعناها علاقته مع المخلوقات الأخرى، وهي علاقة معقدة التركيب نظرا لتعدد الوظائف وتنوع الأدوار التي يقوم بها كل منهما تجاه الآخر. البدوي والبعير لا غنى لأحدهما عن الآخر ولا يستطيع أي منهما تحمل العيش في الصحراء بدون الآخر. لقد ترافقا في رحلتهما الطويلة عبر عصور التاريخ وكانا خير عون أحدهما للآخر على طبيعة الصحراء القاسية. ومما يعزز هذه العلاقة بين الإثنين أن الإبل بطبيعتها حيوانات أليفة تألف مواطنها والمراعي التي اعتادتها والموارد التي تشرب منها وتحن إليها وإلى القطيع الذي تربت معه، ومنها اشتقوا مفهوم الإلف والتآلف. كما أنها حيوانات ودودة تتميز بسرعة التعلم والتعود وسهولة الانقياد والتوجيه وهي مطيعة تنصاع لأوامر صاحبها وتوجيهاته.

كلما تعمقنا في فهم العلاقة بين البدوي والبعير وكلما اقتربنا من فك معانيها ودلالاتها الرمزية كلما اقتربنا من فهم السيكولوجية البدوية. لا تقتصر مهمة البدوي فقط على رعي الإبل وتوفير ما تحتاج إليه من الماء. لا بد من العناية بها إذا مرضت وجلب الفحل لها ومساعدتها أثناء الحمل والولادة. نتاج الإبل أمر في غاية الأهمية بالنسبة للبدوي لأنه لو انقطع الإنتاج لانقرض الذود. ثم إن الحليب الذي تدره الناقة بعد الولادة يشكل غذاء رئيسيا عند البدوي الذي قد يمضي الأيام الطويلة لا يَطْعَم شيئا غير حليب النوق. تتمحور نشاطات البدو اليومية، كما تمليه طبيعة حياتهم الرعوية، حول استيلاد الإبل واستنسالها. ولا أحد عنده من المعرفة ما يضاهي معرفة البدوي فيما يتعلق بولادة الإبل ونتاجها، ولذا تعددت المصطلحات الفنية التي يستخدمونها في هذا الشأن، فيقولون مثلا عن الناقة إذا طلبت الفحل إنها مْجَسّر، وإذا تأكد لقاحها فهي عْشَرا وإذا بان لقاحها فهي لْقِحِه، وإذا تدلى ضرعها قبيل الولادة فهي موطي، وبعد الولادة تسمى خلْفه. هذا تخصص البدوي الذي يمضي فيه كل حياته، بل إنه يلعب دورا أساسيا في رعاية وتوجيه هذه العملية الإنتاجية، ومن الأمثلة على هذا التوجيه، أو التدخل، استنسال الأنواع الجيدة التي تدر لبنا غزيرا أو التي تعطي لحما طيبا أو التي توفر مركبا فارها وسريعا. ومن الأمثلة الأخرى نحر الذكور من النتاج لأنه لا مصلحة من تربيتها فهي حينما تكبر لن تنتج. وحيث أن الفحل الواحد يستطيع تضريب ما بين ٣٠ إلى ٥٠ ناقة (Asad 1970: 17) فلا فائدة من تجميع الفحول التي تستهلك المرعى، وربما تتشاجر مع بعضها. لذلك ينحرون الذكور من النتاج ليَطْعَموا لحمها وليوفروا حليب الأم الذي هم بأمس الحاجة إليه لأنفسهم ولخيلهم وللحيران التي ماتت أمهاتها أو فقدت أو نهبت ولحيران السلالات النجيبة التي يغدقون عليها الحليب من أمهاتها ومن غير أمهاتها.

ومن غرائز الإبل أن الناقة لا تدر إلا على ولدها الذي تعرفه وتميزه عن غيره من رائحته. لذلك فإنهم بعد مقتل الحوار أو إذا مات أثناء الولادة يلجأون إلى التمويه

والخدعة لحمل الأم على الإدرار. يتمثل ذلك في أحد أمرين؛ إما أن يحشوا جلد الحوار الميت بالقش والتبن ويقيموه أمام أمه كما لو كان حيا لتشمه وتدر على رائحته، وهذا يسمى بَوّ (وقد أصبحت هذه الكلمة رمزا لكل ما هو زائف وخدّاع وعديم الفائدة)، أو أن يلجأوا إلى التظيير، أو ما يسمى الظئار بالفصحى، وهو أنهم إذا أرادوا أن تظأر الناقة على ولد غيرها عصبوا أنفها وغمّوا عينيها وحشَوا حياءها بالخرق وخلُّوه بخلالين وتركوه أياما. فيأخذها لذلك غم مثل غم المخاض وتظن أنها قد مخضت للولادة، ثم يحلوا الرباط عن حيائها وينزعوا ما فيه من خرق ويدنوا حوار ناقة أخرى منها قد لُوِّث بما خرج مع الحشوة من أذى الرحم، ثم يفتحون أنفها وعينيها، فإذا رأت الحوار وشمته ظنت أنها ولدته فتدر عليه وترأمه. وعملية التظيير تنطوي على قدر من الألم والإكراه، لذلك توسعوا في استخدام الكلمة لتعني مجازا كل ما فيه إكراه وقسر من شخص لآخر، كما في قول الشاعر هنيدي الحربي في محاورة بينه وبين الشاعر ماوي السلمي يرد على الأخير ويتحداه بأنه لا يستطيع إجباره على فعل ما لا يريد فعله:

أنت ياماوي تجيب علومك اللي ضاري — احذر البارود ياماوي ينوش النيره
لا تلابشني تراي الخوصه الغدّاري — با تظيّرني وانا ما اجي على التظييره

وربما ظيّروا الناقة على حوارٍ ماتت أمه. وإذا كان الحوار نتاج أبوين كريمين فإنهم لا ينحرونه، ذكرا كان أم أنثى، بل إنهم يتأخرون في فطامه وإذا بدأ حليب أمه يتضاءل ظيّروا عليه ناقة أخرى لبنها غزير، لأنهم يعتقدون أن إطالة مدة الرضاعة مما يقوي من عظام الحوار ويشد عصبه ويزيد من قوته وسرعته حينما يتم نموه ويشدون عليه للركوب. يقول مبيريك التبيناوي في مطلع قصيدة وجهها إلى سعدون العواجي:

ياراكبٍ من عندنا فوق لسّاس — ما هو ليالي غذوة النضو عايل
ولد ذلولٍ يلهجه سبعة اجلاس — وْوَرا تمام غْذاه عامين حايل
يَما غدى ما تصطغ الخيل له راس — راعيه لو ياطا الخطر ما يسايل[1]

ومن قصيدة تنسب لشايع الامسح:

قال الغفيلي والذي مس حبله — على بنت قودا من خيار الزمايل
خليتها عامين هي ترضع امه — وعامٍ بضيرينٍ وعامين حايل
وعامٍ ترجّيته وعامٍ عسفته — ياما لِفَتنا بالرديفين شايل
ياما غدت ما يَلحق العوص متنه — ولا يلحق المحجان مَلْوى الشمايل
ياكن بنات البدو يمشطن ذيله — على مِشّة العرقوب غادٍ فلايل
تسمع صِرير الكور تحتي وفوقه — مثل صرير الميس بين المحايل
نارت عن المطلب وشبابة الضوا — وخيلٍ تَعادَى حاميات الشعايل

(١) لساس: اللس هو المص والرضاعة من أخلاف أمه. عايل: يعاني من الهزال لسوء التغذية. ما تصطغ الخيل له راس: لا تستطيع الخيل اللحاق به ورده عن طريقه.

طبيعة حياته الرعوية تملى على البدوي أن تنشأ بينه وبين البعير علاقة من نوع خاص فيتخذه رمزا لكل ما هو نبيل وكل ما هو مأساوي في حياة الصحراء واتخذوا منه رمزا للتوجد والتوجع. ملازمة البدوي للبعير جعلت منه كائنا دائم الحضور في الذهن والشعور، ليس فقط كراحلة أو دابة أو مصدر غذاء وثروة، وإنما كعامل أساسي في قدرة الإنسان على تحمل حياة الصحراء، وكمثال يحتذى في التحمل والصبر والتكيف مع بيئة الصحراء القاسية. ولذا نشأت بين البدوي وبعيره ألفة ومودة ربما تفوق المودة التي تربطه ببني جنسه، وغالبا ما نجد الشاعر في مستهل قصيدته يبث شكواه لفاطره " **يافاطري**" بدلا من أن يبثها لأصدقائه من البشر. ويقول ويلفريد ثيسيجر في كتابه *Arabian Sands*:

> بعد عدة أيام بينما كنا نمشي على الأقدام عبر الصحراء وإبلنا بعيدة عنا لمسافة ثلاثين ياردة تسير لوحدها بدون حادي راهن سلطان شخصا آخر أن ينادي راحلته لتأتي إليه. والإبل بطبيعتها حيوانات اجتماعية تحب البقاء مع بني جنسها وتكره أن تفارق القطيع. ولكن حالما ناداها صاحبها انحرفت عن أليفاتها وجاءت إليه. وأذكر ناقة أخرى كانت متعلقة بصاحبها تعلق الكلب الأليف بصاحبه. كانت طوال الليل تأتي إليه بين فترة وأخرى تحن حنينا خافتا وتشمه وهو راقد ثم تعود لتستأنف الرعي. وقال لي رفاقي أن لا أحد يستطيع ركوبها إلا إذا كان يحمل قطعة من ثياب صاحبها (Thesiger 1959: 69-70) .

يقول ثيسيجر أيضا:

> لم يصدف لي قط أن رأيت بدويا يضرب راحلته أو يسيء معاملتها، بل إنه يقدم راحتها دائما على راحته هو. وهذه المسألة لا تتوقف فقط على كون حياة البدوي تعتمد كليا على ما فيه صلاح إبله، وإنما هو حقا يحبها حبا جما. ولطالما لاحظت رفاقي يدللون إبلهم ويقبلونها ويهمسون لها بعبارات التودد. في السنة الفائتة عبرنا مسافرين من خلال مزارع بالقرب من تريم ومررنا بقروي يضرب بعيرا فسارع عدد من الرشيديين الذين كانوا معي بالقفز والنزول وقرّعوا الرجل بغضب شديد على فعلته المستهجنة وبعد ذلك ما فتؤوا يسخرون منه ويسبونه طول الطريق(Thesiger 1959: 67-8) .

لقد تأقلمت الإبل على العيش والبقاء في بيئة الصحراء الشحيحة ومناخها القاسي بعدة طرق يصعب الخوض في تفاصيلها الفسيولوجية هنا. لكننا نذكر مثلا أن جفن البعير له أهداب طويلة تتشابك لتحمي العين من وهج الشمس ومن الرمل أثناء هبوب العواصف الرملية دون أن تحد من الرؤية. ولعين البعير مجريان دمعيان واسعان لا تسدهما حبيبات الرمل مما يمنع جفاف العين، خصوصا وأن إفراز الدمع يتضاعف عند هبوب العواصف لترطيب العين وتنظيفها من الرمل. ويتكون أنف البعير من عدد من التجويفات التي تسمح بترطيب الهواء وتبريده قبل وصوله إلى الرئتين، كما أن له القدرة لإغلاق الأنف لمنع دخول الرمال إليه. ويستطيع البعير بفضل رقبته الطويلة رعي فروع الأشجار التي يصل طولها إلى حوالي ثلاثة أمتار، كما أن هذا الارتفاع يساعده على الرؤية لمسافات طويلة. وفم البعير مبطن من الداخل ببطانة سميكة تقيه وخز الشوك مما يمكنه من التغذي على النباتات الشوكية.

كما أن الشفة العليا مشقوقة ولها القدرة على الالتفاف والامساك بالأعشاب واقتلاعها ومضغها مما يمكّن البعير من الرعي وهو يسير دون أن يضطر للتوقف. أما السنام فإنه يساعد على تخزين الطاقة الغذائية على هيئة شحوم ودهون يلجأ لها البعير وقت الحاجة، كما في الرحلات الطويلة أو السني أو في أوقات القحط، إنه بمثابة المستودع الذي يخزن الغذاء ويحوله إلى طاقة مختزنة. ولذلك يلاحظ أن السنام يتلاشى، وربما يختفي تماما بعد الرحلات الطويلة التي يمتنع فيها البعير عن الرعي، ثم يعود للنمو مرة أخرى بعد فترة من الراحة والرعي المتواصل.

وعند اشتداد الحرارة في منتصف النهار يتوقف البعير عن الحركة ويبرك مواجها للشمس ليقلل بذلك من نسبة سطح الجسم المعرض لأشعة الشمس، ويساعد هذا الوضع أيضا على تظليل وتبريد البقعة التي يبرك فيها. إضافة إلى ذلك فإن الأجزاء التي تلامس الأرض من جسمه مغطاة بطبقة صلبة مثل الأخفاف والكلكل. وعند السير ترفع أطرافه الطويلة جسمه عن حرارة الأرض. وللبعير القدرة على تحمل الجفاف وفقدان الماء من جسمه إلى نسبة ٤٠٪ دون حدوث أي خلل فسيولوجي مقارنة بالإنسان الذي يهلك لو فقد أكثر من ١٢٪ من ماء جسمه. وأغشية خلايا الدم في الإبل مرنة جدا، فهي بيضاوية الشكل، وليست مستديرة كما في باقي الحيوانات، مما يمكنها من الحركة بسهولة في الدم المتركز نتيجة فقدان الماء، كما يمكنها أن تنتفخ ويزيد حجمها إلى ٢٤٠٪ من حجمها الأصلي دون أن تنفجر، وهذا ما يساعده على تحمل العطش ثم عب الماء إذا سنحت الفرصة بسرعة قد تصل إلى حوالي ٣٠ لترا في الدقيقة وبكميات كبيرة تتراوح من ١٣٥ إلى ٢٠٠ لترا، أي ما يعادل ثلث وزنه تقريبا، في مدة لا تتجاوز عشر دقائق. كما أن بعره الجاف وبوله المركز يخفف من نسبة فقدان الماء. يصل تركيز الأملاح في بول البعير نسبة عالية لتصبح ملوحته تفوق ضعف ملوحة ماء البحر. ولذلك يعمد البدو إلى غسل رؤوسهم ببول البعير الذي تساعد ملوحته المركزة على قتل القمل والفطريات في فروة الرأس. وفوق ذلك يستطيع البعير شرب المياه المالحة وشبه الآسنة التي لا يستسيغها الإنسان أو أي حيوان آخر، ثم يحوّل جسمه وضرعه هذا الملح الأجاج إلى حليب مغذي ولذيذ الطعم.

ومما يزيد من ترسيخ صورة الإبل كمثال للتحمل والصبر قدرتها على حمل الأثقال وقطع المفازات الطويلة والصبر على الطريق وتحمل حفى الأخفاف والمناسم وما تحدثه ظلاف الأشده من قروح غائرة على الأجناب. بإمكان الواحد من إبل الزمل المعدة لحمل الأثقال أن يحمل ما لا يقل عن ٢٠٠ كيلوغراما ويسير بحمله مسافة لا تقل عن ٤٠ ميلا في اليوم الواحد مواصلا مسيرته لعدة أيام بدون راحة. كذلك الذلول المعدة للسفر والركوب بإمكانها أن تقطع براكبها مسافة حوالي ١٠٠ ميل

يوميا لعدة أيام.

احترام ابن الصحراء للبعير وإعجابه به لا حدود لهما. فإذا أرادوا إطراء الرجل ومدحه سموه **هديب الشام** أو **بليهان** كناية على أنه في تحمله وصبره يضاهي الجمال القوية. والرجال الذين يتحملون ويصبرون على الشدائد يسمونهم **زمول المحامل** وهي الجمال المعدة لحمل الأثقال. وشيخ القبيلة المثقل بإدارة شؤونها والذي يتحمل همومها يسمونه **جمل المحامل**. يقول الشيخ محمد ابن هادي ابن قرمله يخاطب قومه:

أنا جملكم في نهار المساويق إن جا من العدوان خيفة عْلومِ

ويقول حويدي العاصمي القحطاني يرثي شيخهم حزام ابن حشر:

لى واجملنا اللي يشيل الروايا لى قَرّبوا للشيل وثنات الاجمال
ناموسنا وقت الرخا والقسايا نضو التخوت وللمحاميل شيال
لو كل الاربع من خفوفه دمايا ما هوب من كثر التعاليق ملال[1]

ويرتبط عندهم مفهوم الشجاعة والرجولة بالفحولة، ويشبهون المحاربين الشجعان بفحول الإبل " **الصايكه وقت الهداد**". يقول عجران ابن شرفي:

هل سربةٍ مركاضها يعجب العين مثل الجمال الصايكه بالهدادِ

ويقول شبيب ابن جفران الفغم:

لى ثوّر المثلوث بالجمع جيناك جمعٍ تصاوك مثل زمل الهدادِ

ويقول محمد ابن هادي:

لي لابةٍ وان قلت للخيل رَدّه ترايعوا للهوش مثل الجمالِ

ويقول حسان بن ثابت:

يمشون في الحلل المضاعف نسجها مشي الجمال إلى الجمال البزّل

ويقول النابغة:

إذا استنزلوا عنهن للطعن أرقلوا إلى الموت إرقال الجمال المصاعب

ويقول خلف الأذن الشعلان واصفا قبيلته الرولة، وعزوتهم هل العليا، بأنهم ينطلقون إلى القتال كما تنطلق فحول الإبل " **الزمول**" التي يتعالى صوت هديرها **تقاصف هديره**، ولا يهدر الجمل إلا إذا استثير:

ربعي هل العليا ليا ثار دخان مثل الزمول اللي تقاصف هديره

ويقول معيكل المنحي المطيري من الجبلان يمدح جماعته بأنهم يقتّلون فحول القبائل الأخرى فتأكلهم جوارح الطير كما يشير إلى ذلك البيت الأخير:

ربعي إلى بانت حروب الاطاريف جمعٍ يبين وساخن الدم منثور
كم طلّقوا بايمانهم من غطاريف ومن جادلٍ دمعَه على الخد قاطور
تبكي فحلها عقب ما هف ما شيف شتّى وربّع به عوج كل منقور

ويسمون الرجال الشجعان **مناعير** والاسم مستمد من النعرة وهو الصوت الذي يحدثه الفحل من نعرته، أي خيشومه، حينما يستهاج ويستشيط. ويشبهون غيرتهم

(١) **التعاليق**: ما يعلق عليه من الأحمال.

على أناثيهم بغيرة فحول الإبل على إناثها. والمقصود بالفحولة الغيرة التي تبعث على الشجاعة اللازمة لصد الفحول الآخرين عن إناث الذود. ومثلما يشبهون أنفسهم بفحول الإبل يشبهون ضجيج النساء في المعركة بحنين الخلج، ومفردها خلوج، وهي الناقة التي تكثر الحنين لفقد ولدها. يشبهون أنفسهم في الشجاعة بفحول الإبل ويشبهون نساءهم بإناث الإبل. ويتجلى هذا التناظر النموذجي بين الإبل والبشر أيضا في رقصة الدحة التي يرقصونها عادة بعد انتصاراتهم الحربية. يصدر الرجال أثناء أدائهم لهذه الرقصة فحيحا وحركات شبيهة بأصوات فحول الإبل وحركاتها ويأتون بفتاة ترقص بين الصفوف يسمونها حاشي ويرتجل شاعر الدحة أبياتا تدور حول الحاشي وتشير لها كما لو أنها ناقة وليست امرأة.

ومما يزيد من إعجاب ابن الصحراء بالبعير وتعجبه منه أنه بقدر ما يمثل بالنسبة له النموذج الأعلى في الصبر والقوة والقدرة على التحمل فإنه في الوقت نفسه يمثل النموذج الأعلى في العطف والحنان. فالناقة حيوان رؤوم لا تطيق فراق حوارها. إذا ما فقدت الناقة حوارها أو فارقت أليفاتها يصيبها الخلاج وتصدر أصواتا أشبه بعبرات الإنسان تسمى حنينا، ومن هنا أصبحنا نقول عن شوق الإنسان إلى أحبته أو وطنه حنيناً. وقصة خلوج ابن رومي (خميس ١٩٧٨:١٣-٤) من القصص المشهورة التي جرت مجرى الأمثال على ألسنة الشعراء مثل قصيدة فهّاد ابن مسعر العاصمي القحطاني التي يسندها إلى ابن نصار ويبدأها بقوله:

ياونّةٍ ونيتها يابن نصّار ما ونّها مثلي خلوج ابن رومي

يقول ألاويس موزيل:

> يوم الأحد قبل مغادرتنا سمعت ناقتين تعولان وتحومان على نفس الحوار. قام العبد داعول بأمر من الأمير (النوري ابن شعلان) بذبح الحوار الصغير لأنه كان ضعيفا بعد أن سُمح له بالرضاع من أخلاف الناقتين مدة تكفي لجعلهما تُدِرّان الحليب. وحيث أن قاسي القلب داعول لم يبعدهما عن الحوار أثناء ذبحه بل ذبح رضيعهما أمامهما، وقفتا هناك فوق جثته وهو يرفس بقوائمه في النزع الأخير وتعولان بسبب هذا الألم الذي جره عليهما العبد اللئيم. وتحاول أمه الحقيقية أن تطرد الناقة الأخرى وتعضها ثم تعود إلى حوارها الميت تلعق رجليه وتحاول رفعه من ظهره وتحن بألم ينفطر له القلب حينما يسقط منها على الأرض. ثم تعود أمه بالتبنّي وتعول معها، وحالما يقوم أحد بإبعادهما عنه تعودان إليه من أقصر الطرق. وأخيرا عمد داعول إلى دفن جثته في التراب بعد أن سلخ قطعة جلد من ظهره مسح بها على أنفيهما ورأسيهما ولما شمتا رائحة حوارهما تبعتا العبد الجزار تلقائيا (Musil 1927: 193-4).

ويقول موزيل:

> فقدت الحيران أمهاتها في الظلام وصارت ترغي وتصيح بينما قامت أمهاتها تصدر رغاءً غريبا يسمّى حنين يشبه صوته قصف الرعد البعيد. والكثير من النوق لم تطق الصبر حتى تعود إليها حيرانها وإنما انحرفت تجري مسرعة للبحث عنه ورمت بحملها وكان لا بد من الإمساك بها وإجبارها على البروك. وتظل تحن وترغي وترفس وتتصرف كما يتصرف من يئس من الدنيا (Musil 1927: 307).

ولا تدر الناقة إلا أذا قيد لها حوارها ورأته وشمته ولامست أخلافها مشفراه، إلا المسوح من الإبل التي طبّعوها وعوّدوها أن تدر بمجرد أن يمسح الحالب على ضرعها بيده. ولذلك فإن البدو لا يقولون عنها درّت ولا أدرّت بل يقولون عُطِفَت على حوارها، ومنه اشتقوا المفهوم الإنساني للعطف، وهو أن يرق قلبك للمحتاج والضعيف وتجود له بما عندك كما تجود الناقة بحليبها لحوارها. وهناك كلمات مثل يروم، ويألف استعارها الإنسان من الإبل التي تجزع جزعا شديدا لفراق أليفاتها حينما ينهبها الغزاة وتتشتت في أيديهم بعدما كانت أذوادا متآلفة. مثلما استعاروا الهيام أيضا لشدة العشق والتي تعني في الأساس شدة عطش الإبل وشوقها لشرب الماء. ومن الصفات التي نقلوها من البعير إلى الإنسان للتعبير عن الألم النفسي والعضوي قولهم مضهود لمن ألم به ضيم أو حيف، وتعني في الأصل الحمل الثقيل على ظهر البعير الذي يزيد عن طاقته، وقولهم ملهود لمن يخفي حزنا دفينا، والملهود أساسا هو البعير الذي أصاب جنبه ورم من تحت الجلد من ضغط الحمل عليه إما لثقله أو لسوء وضعيته، وإن لم يعرّي ظهره من الحمل تفتحت اللهدة وصارت دبرة.

وإذا تعرض النزل لغارة من الغزاة فإن المهاجمين لا ينهبون إلا الإبل القادرة على الهرب ويتركون من لا تتحمل الركض السريع والمتواصل إما لمرض أو إصابة أو عيب أو لصغر سنها. ولا شك أن أصحاب الإبل يصيبهم الجزع لنهب إبلهم لكن ما يجزعهم أكثر ويقطع نياط قلوبهم هو سماعهم من كل جانب في الحي أصوات صغار الإبل " الحيران"، " الحشو" التي لا ينقطع حنينها لفقد أمهاتها، والبدوي شديد التعاطف مع الإبل ولا يتحمل سماع حنينها الذي يملأ قلبه حزنا. والجزع الذي يصيبهم لسماع صوت الحيران هو الذي يشعل فيهم الحماس ويمنحهم الشجاعة والتصميم على استرداد إبلهم المنهوبة، فيحمل كل منهم سلاحه ويرقصون رقصة الحرب ويستعرضون قوتهم " يَعَرْضون" عند الحيران معلنين لها عزمهم على استرجاع أمهاتها: أبشر بامّك، أبشر بامك. ما تحتمه حياة الصحراء من ترحال متواصل وغزوات لا تنقطع جعل الإبل والبشر، كلاهما، عرضة للتشتت وفراق الأحبة " الولايف". إنها مأساة مشتركة بين الإنسان والبعير عبر عنها الشعراء متخذين من جزع الناقة لفراق حوارها أو أليفاتها رمزا لما يحسه الإنسان إذا فارق من يحب وغاب عنه، كما في قول قيس بن ذريح يتوجد على رحيل محبوبته مع العشيرة:

فأُقسم ما عُمش العيون شوارفٌ ... روائمُ بوٍّ حائماتٌ على سَقْبِ
تَشَمّمْنَه لو يستطعن ارتشفنه ... إذا سفنه يزددن نكباً على نكب
رَئِمن فما تنحاش منهن شارفٌ ... وحالفن حبساً في المُحول وفي الجدب
بأوجد مني يوم ولّت حُمُولُها ... وقد طلعت أُولى الركاب من النقب

وكما يقول أيضا:

وما حائماتٍ حُمن يوما وليلةً ... على الماء يُغْشين العصي حوانِ

عوافيَ لا يصدرن عنه لوجهة ... ولا هن من برد الحياض دوان
يَرَيْن حَُباب الماء والموتُ دونه ... فهن لأصوات السُقاة روان
بأجهد مني حر شوقٍ ولوعةٍ ... عليك ولكن العدو عداني

ومثله قول عمرو بن معد يكرب في ارتحال حبيبته مع أهلها:

لعمرُك ما ثلاثُ جاثماتٌ ... على رَبِعٍ يَرَعْن وما يَريع
وناب ما يعيش لها حوارٌ ... شديد الطعن مشكال جزوع
سديس نضجته بعد حمل ... تحرّى في الحنين وتستليع
بأوجع لوعة مني ووجدا ... غداة تحمل الأُنْسُ الجميعُ

وهكذا يصف متمم بن نويرة حزنه لفقد أخيه مالك:

وما وجد أظآر ثلاث روائم ... أصَبن مجرا من حوار ومصرعا
يذكّرن ذي البث الحزين ببَثّه ... إذا حنت الأولى سجعن لها معا
إذا شارفٌ منهن قامت فرَجّعت ... حنينا فأبكى شَجْوُها البركَ أجمعا
بأوجد مني يوم قام بمالك ... مناد بصير بالفراق فأسمعا

وتصف الخنساء وجدها على أخيها صخر تقول:

وما عجول على بوٍّ تطيف به ... لها حنينان إعلان وإسرارُ
ترتع ما رتعت حتى إذا ذكرت ... فإنما هي إقبالٌ وإدبار
لا تسمن الدهر في أرض وإن رتعت ... فإنما هي تحنانٌ وتسجار
يوما بأوجد مني يوم فارَقَني ... صخرٌ وللدهر إحلاء وإمرار

وفي قصيدته الخلوج يوجه عبدالله العوني الخطاب إلى ناقة تحن حنينا موجعا لفقدها حوارها ويتساءل قائلا كيف له هو بالصبر إذا كان البعير، رمز التحمل والصبر، لم يستطع تحمل مصيبة تعد هينة مقارنة بمصيبته العظمى التي تتمثل في موت الأبطال وفقد الأوطان:

خلوجٍ تِجِذّ القلب باتلى عْوالَها ... تكسّر بْعَبْرات تْحَطّم سْلالها
تهيض مفجوع الضماير بْحِسّها ... إلى طَوّحت حِسّه تزايد هْجالها
له قلت انا يا ناق كفي عن البكا ... لا تبحثين النفس عمّا جرى لها
لا تفجعين البال بالله هوّدي ... ولّي خلوجٍ خَبّث البين فالها
تبكين فرقا بَكْرةٍ شَدّة العرب ... ضاعت يمين البوش والا شِمالها
تجيك يا ناق الخطا أو تجينها ... وان كان ما جت لك بديلٍ بدالها
لكن انا اللي ما تْعَدّد مصايبي ... ولا عِلّتي تبرا ولا ينشكى لها

وللشريف جبارة مقطوعة جميلة في هذا المعنى يقول فيها:

إلى حنّت الصفرا قلوصي تظاهرت ... علي هموم ضَرّ حالي لهيبها
إلى ذْكَرَت بين الذراعين مبرك ... وطفلٍ غدا في راس مفلا شعيبها
إلى حرّكت خرس الحنين تهاملت ... عيوني بجاري الدمع مما يصيبها
تحن فلولا ثِقل عقلي وهيبتي ... من الناس كنت العي بصوتي واجيبها
تحن حنينٍ ينجض القلب بعدما ... غفت عين خالى البال في نوم طيبها

فقلت لها والعين تزداد عبره ... ونفسي من الوجلا ضعيفٍ صليبها
ياناق ذوقي مثلما ذقت واعلمي ... لزومٍ تفارق كل عينٍ حبيبها

ويقول الشريف جبارة أيضا:

هيّض علي بتالى الليل والف ... لها ضايعٍ يوم الهجيج حْوار
تحن وهي كد عاقها عن لحوقه ... على الساق بعض الرامحات كْسار
تحن اليهوديات من فقد ليله ... عزّي لمن فرقاه بيع جمار
هذا وهي عجما فياويل من له ... أولاد في سن الرضاع صْغار

وسويلم العلي السهلي فنان بارع يجيد رسم الصور الجميلة المسترسلة والمشبعة بالتفاصيل الدقيقة الحية. هذا مطلع لأحد قصائده يقارن فيه مأساته على فراق الحبيب بمأساة الناقة التي فقدت حوارها وصارت تتصنت بانتباه لعلها تسمع صوته وشبهها بشخص يتصنت ليسمع وصية من يوصيه. ثم يستطرد في تصوير ما جرى لها لما رأته مذبوحا:

عَدّيت لولاحٍ رفيع الحجايا ... في راس ملموم القرا قمت احنّ
كنّي خَلوجٍ يوم صَفْق الرعايا ... تِحِنّ بالمفلى لما روّحنٍّ
على وَلَدها كيف سوّت سوايا ... طبايعٍ ما ظنّتي يِعْمَلَنّ
ساجت ولاجت ما لقت له حلايا ... وخِرْشت وْنَشّت والقوايم جِثَنّ
وتصنّ مثل اللي يْوَصّى وصايا ... تبي لعل سْموعها يسمعن
ولاجت وشافت بالنواظر هفايا ... حوايمٍ على مداسهن هَفَن
جتهن وشافت بس نثر الحوايا ... وجلده ومدراج الحمر يوم ثِنّي
عرفت وشافت من لحومه شوايا ... تاقت بطيحه والضلوع اعولن
الدود ما بين الضلوع الحنايا ... قَطّع علايق قلبها واصرمن
جرحي غميقٍ مثلها بالتهايا ... عِدّيت والمجمول عَدّوه عني

وقد أجاد أحد الشعراء في تقمص سيكولوجية الإبل التي نهبها الغزاة من مراعيها فعرض علينا في هذه الصورة مأساة هذه الإبل التي نهبها صاهود ابن لامي "أبو سفّاح" ومعاناتها وما تحسه لفقد حيرانها وأليفاتها:

يامل قلبٍ بنات البدو يشْعَنّه ... شعية قِطيعٍ خذوها قوم صاهودِ
مقدم هل الهجن ابو سفّاح يتلنّه ... واللي معه كلهم صبيان مقصودِ
إلى شَعَوا جلّهن واقفوا عليهنّه ... ما يقعد الا شبه ضالع ومفرود
تشاوروا بالنكوفه واوردوهنّه ... عدٍّ ذرت جرّته هبايب النود
يوم اوردوهن على الما جا لهن حنّه ... مْفرّقٍ ولفهن طارد ومطرود[1]

اتخذ الشعراء من الإبل وسيلة للتعبير عن مأساة الحياة في الصحراء. وهناك

---

(١) **يشعنه**: تسوقه بسرعة وعنف. **صبيان مقصود**: من خيرة الفتيان. **جلهن**: أجودها. **ضالع**: من تضلع ولا تستطيع السير السريع. **مفرود**: الحوار وقت فطامه. **النكوفه**: العودة إلى أهلهم بعدما نهبوا الإبل. **ذرت جرته هبايب النود**: اخفت الرياح معالم الطريق لهذا المورد لبعده وقلة من يرده. **مفرق ولفهن طارد ومطرود**: افترقت عن أليفاتها لكثرة عدد المرات التي تنهب فيه من أصحابها ثم تنهب مرة أخرى من الذين نهبوها وهكذا.

مأساة أخرى يشترك فيها الإنسان والإبل وتمثل نقطة التقاء شعوري بينهما، ذلك ما يتعرض له كلاهما من تعب وعناء أثناء عملية السواني. كثيرا ما استمد الشعراء مجازاتهم في التعبير عن معاناتهم من السانية فيستطردون في وصفها ويرسمون مشهدا مليئا بالتفاصيل عن ما تتعرض له إبل السانية من ألم وتعب.

كانت السواني تمثل بالنسبة لمجتمع الجزيرة العربية في العصور الماضية إنجازا تكنولوجيا مبهرا يمثل تفوق الحضر التقني على البدو الذين يأنفون أصلا من امتهان العمل اليدوي. تتألف السواني من محالة مسننة وعريضة تثبت فوق فوهة البئر على ارتفاع محدد تحملها عرائض من نبوع النخيل وتسندها دعائم من خشب الأثل السميك، تسمى الواحدة منها **دامغه**. ويسند **الدوامغ زرنوقان** يبنيان من الحجر متقابلان على جانبي البئر. تحت المحالة وفوق **الكافّه** تثبت الدراجة. و **الكافّه** عبارة عن فرش صخري طويل يوضع على حافة البئر ليكف تسرب الماء من الإزاء " **اللزا**" إلى البئر. يمر على المحالة حبل سميك يسمى **رشا** مفتول من ألياف النخيل وعذوقها، ونظرا لخشونته فإنهم عادة ما يلفون عليه غطاء من الخرق البالية، وعلى الدراجة حبل أقل سمكا يسمى **سريح**، وهو عادة مقدود من جلد البعير. ويُربط أحد طرفي السريح بالقتب المثبت على ظهر البعير والطرف الآخر بفوهة الغرب التي يتدفق منها الماء في الإزاء، مثلما يربط أحد طرفي الرشاء بالقتب والطرف الآخر بالجانب الآخر من الغرب. وتتردد إبل السانية، التي يتراوح عددها في المتوسط من ثلاث إلى أربع، بعدد ما على البئر من محال، في المنحاة التي يتناسب طولها مع عمق البئر، ويتراوح ما بين الثلاثين إلى الخمسين مترا. وفي كتابه **المعنون السواني والسانية** يورد الشيخ سعد بن عبدالله الجنيدل وصفا دقيقا ومفصلا لكل ما يتعلق بالسانية (جنيدل ١٩٨٨). وتركز الشواهد الشعرية، الفصيحة والنبطية على الدور الأساسي الذي تلعبه الإبل في عملية السواني التي يبدو من هذه الشواهد أنها لم يطرأ عليها تغيير يذكر منذ العصر الجاهلي حتى تم استبدالها بالمكائن في العصر الحديث.

وقد استحوذت السواني على اهتمام الشعراء وتناولوها من مختلف جوانبها ووصفوا جزئياتها وأدواتها ومراحلها. لكن الجانب الأعمق في هذا التناول الشعري هو استبطان ما تعانيه إبل السانية من تعب وألم نفسي وجسدي جراء ترددها الرتيب رائحة غادية طيلة النهار وشطرا من الليل في المنحاة تذرعها جيئة وذهابا لجذب الغروب المملوءة بالماء من البئر ثم تعيدها بعد تفريغها إلى البئر كرة أخرى. وإذا وصلت إبل السانية إلى طرف المنحاة الذي يلي **اللزا**، ويسمى **المعدّل**، تكون الغروب وصلت إلى قاع البئر وامتلأت بالماء. ومن **المعدّل** تُعدّل الإبل اتجاهها وتنحرف باتجاه الطرف الآخر من المنحاة، ويسمى **المصب**، لأن الإبل إذا وصلته صبت الغروب ماءها في الإزاء. ولمساعدة الإبل في جذب الغروب الممتلئة بالماء يكون منسوب المنحاة

منحدرا قليلا باتجاه المصب. وحينما تسكب الغروب ماءها وتنحرف الإبل مصّعدة في سيرها نحو المعدّل يمسك سائقها بحبال أحدها لمساعدته في صعوده معها من المصب إلى المعدّل. بعد أيام من دخول البعير إلى المنحاة يبدأ شحمه يذوب وسنامه يتلاشى وجسمه ينضى حتى يستنفد طاقته خلال بضعة أشهر فلا يستطيع النهوض إذا برك إلا بإسناده ورفعه على أعمدة الخشب. ولا أحد يستطيع فهم هذا العناء –الذي هو أشبه بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة– مثل سائق الإبل الذي يشاطرها هذا العذاب والضجر. سياقة إبل السواني من أشق الأعمال على الجسد وأكرهها إلى النفس لدرجة أنهم يسمون المنحاة مقبرة الدنيا. لا بد أن البعير يحس بما يحس به الإنسان من ألم، حتى ولو لم تبدر منه بوادر التشكي والتذمر. هذا مما يزيد من إعجاب العربي بالبعير ويعمق تعاطفه معه. ومن أشهر الشواهد في الشعر الجاهلي قول لبيد:

فصرفتُ قِصرا والشئون كأنها ... غربٌ تحث به القلوصُ هزيمُ
بكرت به جَرَشيةٌ مقطورةٌ ... تُروي المحاجرَ بازلٌ علكوم
دهماءُ قد دُجِنت وأُحْنِق صلبُها ... وأحال فيها الرضخُ والتصريم
تسنو ويُعجِل كرّها متبذّل ... شَثِنٌ به دَنَس الهناءِ دميم

وقول علقمة بن عبدة التميمي:

فالعين مني كأن غرب تحطّ به ... دهماء حاركُها بالقتب محزومُ
قد عُرّيت حُقْبَةٌ حتى استَطَفّ لها ... كتر كحافة كِير القين ملموم
قد أَدبر العر عنها وهي شاملُها ... من ناصِعِ القطرانِ الصِرْفِ تدسيم
تُسقي مذانبَ قد زالت عصيفتُها ... خدورُها من أتي الماء مطموم

وقول بشر بن أبي خازم:

ألم يأتها أن الدموع نطافة ... لعين يوافي في المنام حبيبُها
تَحَدُّر ماء الغرب عن جرشيةٍ ... على جربةٍ تعلو الدبار غُروبُها
بغربٍ ومربوعٍ وعودٍ تقيمه ... محالة خطّافٍ تصر ثقوبُها

ومن الشواهد النبطية قول مرسا العطاوية:

ياجر قلبي جر غربٍ على بير ... على ثلاث حيل وبْهن زرقا
ساعة يصبّنّه الاهن محادير ... تحرّفنّ بْسرع والغرب يرقا

وقول بندر ابن سرور:

يامل قلبٍ تلّه الحب تلا ... تل الرشا في وسق ملحا جْلاله
في غربها تسعين شلح ومشلّ ... وتجفل ليا سمعت ضِريس المَحاله

ويقول بخيت ابن ماعز العطاوي:

ياونتي ياساره الوازعيه ... ونّة مْعيدٍ ساقَها الفجر عمّال
تِقْفي وتِقْبل فوق جال الركيّه ... ومن الصلف خالٍ ظَهَرها من الحال

وهذه من روائع الشاعر عبدالله ابن سبيل الذي يضيف إلى عناء الإبل جراء متح

الغروب الممتلئة بالماء سائقا شرسا نزر الطباع:

ياتل قلبي تلة الغرب لرْشاه ... على زَعاعٍ حايلٍ قصّرت به
سوّاقها عبدٍ ضَرَبْها بمحداه ... امّا امرست برشاه والا وطت به
كِنّك على سوقَه تهمّه وتنخاه ... لا عوّد الله ساعةٍ عَرّفت به
لى اقفى بها كن الطماميع تشعاه ... كن الدلو طيرٍ إلى نزّعت به
لين امّزع غربه على حد عرقاه ... وجيلان بيره بالمسوح لْعَبت به[1]

ومثله قول الشاعر مشعان الهتيمي:

ياونّتي ونّة ثلاثٍ هلايم ... من نسفهن خضر الجمام الدغاريق
سوّاقهن عبدٍ مع الليل يجهم ... وانجح مصاخفهن بروس المساويق[2]

وقد استأثرت الإبل بالحيز الأكبر من الشعر العربي، بل لقد احتلت أبرز مكان في مقدمة القصيدة وذلك في موضوع الرحلة، أو ما يسمى **الارْكاب** في الشعر النبطي، وهو الموضوع الذي يشكل العمود الفقري للقصيدة العربية، حيث أن الغالبية العظمى من الشعراء الجاهليين والنبطيين يستهلون قصائدهم بذكر الراحلة ويطنبون في وصفها لأنها هي الوسيلة التي ستوصلهم أو توصل رسالتهم الشعرية إلى حيثما يريدون. يكوّن موضوع الرحلة جزءاً مهماً من جماليات القصيدة العربية وبنائها الكلي ويشكل عنصرا من أهم عناصرها الفنية، وبقي حيا على مر الأزمنة، واستمر بجميع جزئياته حتى جاءت السيارة لتحل محل الناقة وتقلص الدور الحضاري لهذا الحيوان، ذلك الرمز الحضاري الذي لعب دوراً حاسماً في ربط حاضرنا بماضينا، ذلك الكائن الحي الذي رافق إنسان الجزيرة العربية في رحلته الطويلة عبر عصور التاريخ وكان خير معين له على تحمل طبيعة الصحراء القاسية. لم يزل الشاعر النبطي حتى عهد قريب يتعامل مع الناقة بنفس أسلوب الشاعر الجاهلي وظلت الغالبية العظمى من الشعراء النبطيين يستهلون قصائدهم بذكر الراحلة النجيبة " **الذلول**"، "**المطيّه**" ويطنبون في وصف رشاقتها وتناسق أعضائها ونشاطها، تماما كما كان يفعل أسلافهم في الجاهلية.

الناقة بالنسبة للشاعر وسيلة لإلغاء المسافة واجتياز مساحات الصحراء المهولة الشاسعة. ويؤكد الشعراء أنه لا يقدم على مثل هذه الرحلة إلا رجل صلب على راحلة صلبة. يختار الشاعر لراحلته التخيلية ناقة نبيلة السلالة ليست من تلك السلالات الوضيعة المستخدمة لحمل الأثقال. القيام برحلة بعيدة في المفازات الموحشة مهمة شاقة ومغامرة غير مأمونة قد تؤدي إلى هلاك الراحلة وراكبها، لذا لا بد للإثنين أن يتعاونا ويوظف كل منهما حواسه وكل ما أوتي من قدرات غريزية لتحاشي الأخطار،

(١) **ياتل قلبي**: التل هو الشد والجذب الشديد. **زعاع**: ناقة غير مذللة. **محداه**: عصاه الغليظة. **امرست برشاه**: خرج الحبل من مجراه في المحالة. **كنك تهمه وتنخاه**: كأنك تحثه وتشجعه. **كن الطماميع تشعاه**: كأن الغزاة يطاردونه. **امزع غربه**: انقطع الحبل الممسك بالغرب من عند الكرب. **المسوح**: احتكاك الغرب بجال البئر.

(٢) **مصاخفهن**: جنوبها وما رَقّ من لحمها.

حيث أن حياة أي منهما وبقائه مرهون بالآخر. والراكب الخبير لا يجهد راحلته ويعتني بها جيدا. يقول بيرترام توماس:

> توقف المسافرين في الصحراء مرهون دائما بما فيه مصلحة ركائبهم، وهم في ذلك على حق. يستهل المسافر عديم الخبرة رحلته باحتقار هذه الحيوانات المسكينة لكن احتقاره يؤول في النهاية إلى إعجاب شديد، فهي الوسيلة التي بها يتعلق نجاح مآربه حيث تبلغه مقصده وتنجيه من المخاطر. لو مات البعير في جوف الصحراء لمات صاحبه معه. الرفق الذي كان يوليه رفاقي لركائبهم أمر ملفت للانتباه. غالبا ما وجدت نفسي أنا الوحيد من بينهم راكبا بينما هم راجلين يمشون لساعات طويلة ليخففوا عن ركائبهم العناء وكانوا يجرون هنا وهناك ليجمعوا لها ما تيسر من فروع الشجيرات الغضة ليطعموها لها أثناء المسير (Thomas 1932: 176).

ويقول ويلفريد ثيسيجر:

> لاحظت مدى رفق البدو بإبلهم واستعدادهم دائما لتحمل المشاق بأنفسهم بدلا منها حفاظا على راحتها. بينما كنت مسافرا معهم لاحظت في الكثير من الأحيان أننا إذا اقتربنا من الموارد لا يستعجلون بالوصول إلى الآبار للشرب علما أنني كنت أتوقع أنهم سيسرعون لملء قربهم الفارغة بالماء نظرا لما يقاسونه من شدة العطش، لكنهم كانوا يصرون على التوقف والمبيت قبل المورد ليعطوا ركائبهم فرصة للرعي إذا كان مكان المبيت معشبا ولا توجد مراعي بالقرب من المورد (Thesiger 1959: 45).

والناقة أسرع جريا من الجمل وأسهل انقيادا وأكثر قابلية للتذليل، خصوصا في فصل الشتاء، وهو الفصل الذي تهيج فيه فحول الإبل. وقبل بدء الرحلة تحيّل الناقة، أي يحال دونها ودون الفحل، حيث أن الحمل والوضع والرضاع يوهنها. كما أن الناقة حديثة الولادة يصعب فصلها عن حوارها ويكثر حنينها ولهاً عليه إذا فارقته وتهيم بحثا عنه كلما غفل عنها صاحبها. وتعفّى، أي تعرّى من الرحل، وتترك حرة طليقة ترعى أينما طاب لها المرعى حتى تكتنز شحما ويعلو سنامها وتختزن الطاقة الضرورية وتكسب النشاط اللازم لرحلة الصحراء الشاقة. يقول النابغة الذبياني:

قد عُرّيت نصفَ حولٍ أشهرا جددا ... يَسْفي على رحلِها بالحيرة المورُ

ويقول المرار بن المنقذ:

راضها الرائضُ ثم استُعْفيت ... لِقَرى الهم إذا ما يَحتضر

ويقول الحطيئة:

وصريمةٌ بعد الخِلاجِ قَطعتُها ... بالحزم إذ جَعَلت رُحاه تدورُ
بجلالة سرح النجاء كأنها ... بعد الكلالة بالرداف عسير
ورعت جنوب السدر حولا كاملا ... والحزنِ فهي يزل عنها الكور
فبنى عليها الني فهي جُلالة ... ما أن يحيطُ بجوزِها التصدير

ويقول بشامة بن عمرو:

فقربتُ للرحل عيرانةً ... عذافرةً عنتريسا ذمولا
تطرد أطراف عام خصيب ... ولم يشلِ عبدٌ إليها فصيلا

فـــمــــــرت عـلـى كــــــشب غــــــدوة وحــــــاذت بـجنب أريـك أصـــــيــــــلا

ويقول الأعشى:

وعـــــســــيـــــر أدمــــاء حــــادرة الـعــــيـ ن خنوف عـــــيــــــرانة شــــمـــــلال
من سـراة الهـجـان صلّبـهـا العـضـ ض ورعيُ الحـــمـى وطولُ الحـــيــــال
لم تـعـطّـف عـلـى حــــــوار ولـم يـقـ طع عــبــيــد عــروقــهــا من خـــمــال

قارن ذلك بقول محدى الهبداني:

دنّوا بعـــيــــدات المــــاشي ركــــابِ عَـــرنْدِســـــاتٍ يقطعن المحـــاويل
عِـــروات لـين ســــهـــــيل بـيّن وغـــــاب حـــتـى غــدى فـــوق الاباهر زهامـــيل
يـرعـن مـن الـربـلـه ورجـل الـغــــــــراب باطرافـــهن تلقى الخـــزامى تقل نيل
حِـــثّــوا مناكب جــيــشكم بالعَـــقــاب قــــلايص مــــا لاغــــمن المخـــاليل

وقول عجلان ابن رمال الشمري:

حــمــرا تضــيم الدوّ مــا تســتــضــيمِ تلقى العـــتـــاري حـــاشــيــات عْـــذاره
مـــشـــتـــاه من عــذفــا الى ام الصـــريم ومـــربـاعــــهـــا اللبّـــه ثْقَطِّف قـــراره
تمشي من المركـــوز وقت الجـــهـــيـم والظهـــر حطّ رعـــون كـــبـــدٍ يســـاره

وقول عبدالله ابن سبيل:

ياراكبٍ من عندنا صـــيــــعــــيـــريّات من ســـــاس عـــيــــراتٍ عْــــرابٍ تِلاد
بيض المحـاقب والغـوارب مـشـيـبـات للتِلو مـــا ســـوّوا لـهن التـــوادي
للشـــد وطنات وبالمشي طفــــقـــات غِـــزّ المســـــامع والنـواظر حـــــداد
عــامين يرعن في حــيـا نجـد مـشـهـات من حــــد الانجل للنجح باســـتـناد
مـــرباعـــهن مـــا بين عــرجـــا وابانات وان حــــــدّرن لمريطبـــــه والـثـنـادي
ومـصـيـافـهن كـبـشـان للبـدو مـشـهـاة لـى كن مـــزن الصـــيف بقـــران حـــادي
مْـعَـقَّــيـاتٍ قـيـظهن مـــســتـريـحـات لما بـدا نجـم التــــــويبع وْكـــــــاد
جـا حَـقّنا فــيــهن وهن حــقّــهن فـات قطع الفـــيـــافي والخـــروم البـــعـــاد

لاحظ أن الشبه بين هذه الأبيات النبطية والأبيات الجاهلية شبه تلقائي غير مفتعل وغير مقصود ولكنه في نفس الوقت شبه قوي مكين يسترعي الانتباه ويؤكد على الاستمرارية الحضارية واللغوية. فالشاعران الجاهلي والنبطي كلاهما يحدد بالضبط مواطن الكلأ التي رعتها الناقة في فصول السنة المختلفة وأثر ذلك في سمنتها ونشاطها. فراحلة الحطيئة من السمنة والنشاط بحيث "يزل عنها الكور" و"ما أن يحيط بجوزها التصدير" أما راحلة عجلان ابن رمال الشمري فإن **العتاري حاشيات عذاره** وركائب محدى الهبداني قد اكتنزت شحما **حتى غدى فوق الأباهر زهاميل**. وكلا الشاعرين، الجاهلي والنبطي، يصفان الراحلة بأنها عاقر لم تلد ولم ترضع. بينما يقول بشامة بن عمرو أن راحلته "لم يشل عبد إليها فصيلا" نجد أن ركائب محدى الهبداني **ما لاغمن المخاليل** وركائب ابن سبيل **للتلو ما سووا لهن التوادي**. وراحلة بشامة بن عمرو من فرط نشاطها أصبحت قرب كشب وأمست بجنب أريك كراحلة عجلان

ابن رمال التي أصبحت قرب "المركوز" وأمست عند جبال "كبد"، وما أشبه بيت بشامة ببيت الشاعرة نافعة المطيرية من ذوي عون حيث تقول:

مسراحها من كشب من حقة الشوف والعصر يقهرها من القوز ويسار

فحرة كشب الواقعة شرق حرة بني سليم هي نقطة الانطلاق لكلا الراحلتين، راحلة بشامة وراحلة نافعة. وكما احتفظ شعراء النبط بجزئيات صورة الراحلة وعناصرها كما ورثوها من شعراء الجاهلية فلقد احتفظوا أيضاً بمفرداتها ومصطلحاتها الفنية. فالكلمات "عرّيت" عند النابغة و"استعفيت" عند المرار بن منقذ و"عيرانة" عند بشامة بن عمرو يقابلها **عروات** عند الهبداني و **معفيات** و **عيرات** عند ابن سبيل، وكلمة **صيعريات** عند ابن سبيل هي صيغة الجمع لـ صيعرية التي ترد كثيراً في الشعر الجاهلي. وكلمة "ني" في بيت الحطيئة الأخير والتي تعني الشحم ترد كثيراً في الشعر النبطي كقول الشاعرة نورة السيحانية العتيبية **ياراكب اللي نيها حشو الابداد** وقول صاهود ابن لامي **كم فاطرٍ من نيّها تزعج الكور**.

ويتفق شعراء الجاهلية وشعراء النبط في وصف الناقة خَلْقاً وخُلُقاً ويوردون قائمة طويلة لا حصر لها من النعوت الدقيقة والصفات المميزة التي يجب توفرها في الراحلة النجيبة مثل طول القوائم والرقبة ورشاقة الجسم وتناسق الأعضاء وقوة العضلات. ولا بد أيضاً أن تتميز الراحلة بحدة السمع والبصر، أذناها قصيرتان مدبّبتان وعيناها تتوقدان كالجمر، حتى تكون حذرة متيقظة تنبه راكبها إلى ما يعترض طريقه من عدو متربص أو سبع كاسر وهذا ما يعنيه ابن سبيل بقوله **غز المسامع والنواظر حداد**، وقد وضح ذلك طرفة بن العبد في قوله:

وعينانِ كالماويتينِ استكنّتا بكهفي حجاجي صخرةٍ قلت موردِ
طحورانِ عوّار القذى فتراهما كمكحولتي مذعورةٍ أم فرقد
وصادقتا سمع التوجس للسرى لهجسٍ خفي أو لصوت مندّد
مؤلّلتان تعرف العتقَ فيهما كسامعتي شاةٍ بحومل مُفْرَد

ولئن نعت الشاعر الجاهلي راحلته بأنها حذرة يقظة تتلفت يمنة ويسرة كأم الفرقد المذعورة فلقد أجاد ساكر الخمشي حيث يقول في وصف الراحلة:

كِنّه تِلذّع سارقٍ متهمينه هاب القرار وشايفٍ بشعة النار[1]

ولا يقل عنه جودة قول خلف أبو زيد السنجاري الشمري يصف عين راحلته:

حمرا سنا عينه تشادي سنا نار تقلب كما المشهاب عقب السواده
عين العديم الى سمع صيحة الجار عَيٍّ وله عند الملازيم عاده[2]

ولابد للراحلة النجيبة أيضاً من أن تكون صموت السرى كتوم الرغاء حتى لا

---

(١) كان قضاة البدو إذا أرادوا أن يمتحنوا شخصا متهما بسرقة أو أي جريمة أخرى يولجون يد محماصة البن في النار حتى ينقلب لونها أحمرا ويضعونها على لسانه فإن كان بريئا يقولون إنها لا تضره، وغالبا ما يعترف المجرم ويقر بجريمته خشية هذا الامتحان.

(٢) **العديم**: الشجاع، كذلك العي. **له عند الملازيم عاده**: من عادته أن يظهر شجاعته بدون تردد عند الحاجة واللزوم.

تثير الأعداء والوحوش وتلفت انتباههم إلى طريق راكبها ومكان تعريسه ومقيله، وفي ذلك يقول الحطيئة:

فهل تبلغنّكَها عرمس صموت السرى لا تشكي الكلالا

ومثله قول محدى الهبداني:

ياراكبٍ حمرا كتومٍ رغاها ممشى ثمان ايام تطويه مشوار

وقول رميح الخمشي:

شيبا ظهر من كثر ما غربلوها ولا هيب رغّايه ضبوحٍ نِسَمها

وغالباً ما يضيف الشاعر إلى هذه الصورة شيئاً من الحركة كأن يتطرق لوصف سرعة الناقة ونشاطها. وحقاً إنه لما يسترعي الانتباه أن يتلاقى هنا الشاعر النبطي مع الشاعر الجاهلي حتى في أدق التفاصيل، فلو نظرنا إلى قول عناد ابن مطلق:

الى زِمى حيد وْورا الحيد اليفه وخذوا عليهن ساعة وشوط مع شوط

وقامت تلْوّج بالضمير السفيفه تلقى البطان بمشّة الزور مربوط

الشطر الأول من البيت الأول فيه شبه لطيف بقول جابر بن حني التغلبي:

إذا زال رعنٌ عن يديها ونحرِها بدا رأس رعنٍ واردٍ متقدّمِ

أو قول المرقش الأكبر:

إذا علم خلّفْتُه يُهتدى به بدا علم في الآلِ أغبرَ طامسِ

أو قول الحطيئة:

وإن نظرت يوما بمُؤْخَر عينها إلى علم بالغور قالت له ابعد

وشبه الشعراء سرعة الناقة بسرعة القطا والنعام والصقور والعقبان والظليم، ومنهم من يستطرد في وصف الموصوف به ويشبه سرعة انطلاقه بسقوط الدلو إذا خانه الرشاء. يقارن زهير سرعة ناقته بسرعة الأتان الوحشية التي يطردها فحلها ثم يستطرد في وصف سرعة الأتان قائلا:

فشج بها الأماعز فهي تهوي هويّ الدلو أسلمَها الرشاءُ

وهذا متمم بن نويرة يصف سرعة الحمار الوحشي:

يعدو تبادره المخارمَ سمحجٌ كالدلو خان رشاؤُها المتقطع

وذو الرمة يصف سرعة النعامة:

كأنها دلو بئر جد ماتُحها حتى إذا ما رآها خانها الكرب

وقد اختصر شعراء النبط المسافة فحذفوا الموصوف به وشبهوا الناقة رأسا بالدلو. يقول ساكر الخمشي:

إلى امهلوا له بالرسن ونْهموها دلو الطوال الى تصرّم وذَمها

ويقول خلف ابو زويّد:

لى قلت بادت دَكّ به جدّه العود دلوٍ رشاه مْصدّرٍ وانقطع به

وفي مجتمع أمي لا يعرف الكتابة يبرز دور الناقة كأداة توصيل، توصيل الرسائل والأخبار التي تنبث بين أحياء العرب وتذيع على شكل أشعار يتناقلها

المسافرون ويحدوا بها الركبان من مورد لمورد ومن قطين لقطين. الناقة هي أداة التوصيل التي تنقل الرسالة الشعرية من شيخ قبيلة إلى شيخ قبيلة أو من شاعر إلى شاعر أو من محب إلى حبيبه، فلا بد من أن تكون سريعة ونجيبة. هنا تصل المبالغة في وصف السرعة إلى الحد الأسطوري حيث يشلي الشاعر في إثر الناقة سبعا كاسرا أو يقرن بها هرا وحشيا ينهش في دفوفها. يقول جابر بن حني التغلبي:

أنافت وزافت في الزمام كأنما إلى غِرْضِها أجلاد هر مؤوّم

ويقول عنترة:

وكأنما تنأى بجانب دفّها الـ وحشيِّ من هزج العشي مُؤَوّمِ
هر جنيبٍ كلما عطفت له غضبى اتقاها باليدين وبالفم

ويقول المثقب العبدي:

بصادقة الوجيف كأن هرا يباريها ويأخذُ في الوضين

ويقول ضاهر الشليخي الدهمشي:

وخلاف ذا شدّيت نابى الفِقارا كن الضواري تنهشه مع مقافيه

ويقول فراج ابن ريفه القرقاح القحطاني:

لى روّحت مع سراهيد الخلا الخالي كن الذيابه تْنَهّش من جوانبها

ويقول عايض الابيتر:

تقول تنحاهن هجافا السعاره عيرات كن بروسهن طايرٍ جن

ويقول عجلان ابن رمال:

أول نهاره ظِلّها له جريمِ والعصر تقل ينهّشنّه سعاره

ويقول نويجع الحنيني الحربي:

ياراكب اللي لى مشت تقل شاحوف كن المغلّث تَنْهَشَه من قفاها

ولتكثيف الصورة الأسطورية لسرعة الناقة وحدة نشاطها وسرعة انطلاقها يصفون آثار وطأة خفها على الأرض والتي تفتت الحجارة الصلبة من قوتها وتتطاير من تحت أقدامها في كل اتجاه. يقول عتيبة بن مرداس:

كأن حصا المعزاء بين فروجها إذا لحقتها رجلُها حذفُ أعسرا

ويقول تركي ابن حميد:

عدنا على هجنٍ من البعد ضمّار من القفل يشدن النعام المداحي
تودع حصا الرشراش بالدو طيّار إلا ونقدع روسهن باللواحي

ويقول محمد ابن لعبون:

تنفي مناسمها الحصا تقل حالوب غدرا شبوبه ساريات نحاحيب

ويقول ابن سبيل:

يوم خْطفوهن روّحن طفّح جْفول كنّه يْرَمّى من تحتهن هداميل

ويتفق الشاعران الجاهلي والنبطي في تشخيصهما للناقة النجيبة وتعداد صفاتها والتي منها صبرها على العطش وعزوفها عن الماء رغم تباعد المسافات بين

الموارد، على خلاف الإبل الأخرى التي تعب الماء بنهم. وحتى بعد أن تشرب وتصدر عن الماء تبدو وكأنها لم ترده لشدة ضمورها وخلو جوفها من الطعام. يقول عنترة:

شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

ويقول جابر بن حني التغلبي:

وصدّت عن الماء الرواء لجوفها دويّ كدف القينة المتهزّم

وتقول ذكر العواجية:

ياراكبين اكوار حيلٍ هفاهيف غادٍ لهن عقب المقيل اجتوالِ
لى صدّرن من مارد عِدّهن عيف بوسوطهن ما احلى وسوم الحبال

والشاعر كما يستعين بناقته على قطع المسافات يتوسل بها أيضاً لجلب الراحة الذهنية وطرد الهموم عن نفسه كما يقول طرفة في معلقته:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقالٍ تروح وتغتدي

أو كما يقول الحطيئة:

وإذا تباشرُك الهمو مُ فإنها داء مخامر
ولقد تقضيها الصريـ ـمةُ عنك والقِلَق العُذافر

أو كما يقول رضا ابن طارف الشمري:

لى ضاق بالي قلت دنّوا ذلولي حطّوا عليها كورها والقراميش
حطّوا عليها كورها وارخصوا لي نبي نمضّي وقتنا بالمطاريش

أو قول ذكِر العواجيه:

تَوّي لقيت الهجن باكوارهن كيف باكوارهن ينسى هوى كل غالي

ويقول الآخر:

ياوش عاد يبري ضيقة الصدر يا من فاع ركوب النجيب وما بغى الغشمري جابه

وكثيراً ما تمتزج صورة الناقة كوسيلة لقطع المسافات بصورتها كمثال فني أو نمط جمالي يتلذذ الشاعر في التطلع إليه والتحديق فيه وتسجيل حتى أخفت ألوانه وأصغر أجزائه، يقول ويلفريد ثيسيجر:

> يرى البدو أن الإبل جميلة ويستمتعون بالنظر إلى البعير الطيّب مثلما يستمتع بعض الإنجليز بالنظر إلى حصان أصيل. لديهم شعور عارم بما لدى هذه الكائنات العجيبة من قوة ورشاقة وإيقاع. والحق أنني لم أر منظرا أجمل من منظر البدو وهم يعتلون مطاياهم الأصيلة وهي تهرول بأقصى سرعتها. ولكن هذا المنظر نادر جدا لأن البدوي عادة لا يركض راحلته لئلا يتعبها (Thesiger 1959: 70).

ويركز الشعراء على آثار الرحل التي يشبهونها بآثار حبال الدلاء التي أحدثت بعد طول السنين آثارا على جوانب البئر الصخرية. يقول حسان بن ثابت:

ترى أثرَ الأنساع فيها كأنها موارد ماء ملتقاها بفدفد

ويقول طرفة:

كأن علوب النسع في دأياتها موارد من خلقاء في ظهر قردد

ويرد هذا كثيرا في الشعر النبطي على غرار قول ابن سبيل شيب المحاقب والغوارب

مشيبات أو قول ذكر بنت العواجي بوسوطهن ما احلى وسوم الحبال. وحتى حركة الذيل ولونه يجد فيها الشاعر ما يستحق التسجيل كقول أبو زويد حمرا تسوف كعوبها في سبيبه أو كقول لآخر شقرٍ ولون اذيالهن مثلهن هن وكقول دوسة الشمرية:

ياراكـــــبينٍ شـــــهب الاذيال وجْنٍ   حـــــيلٍ ولا شَـــمّن ذْيال المخـــاليل

لاحظ أن كلمة وجن هي صيغة الجمع ومفردها "وجناء" التي ترد كثيراً في الشعر الجاهلي. وأحسن من ذلك كله قول محمد ابن منصور الريس:

قل هيــه ياهل شـايبـات المحـاقـيب   اقـــــفن من عندي جْـــــداد الاثـاري
اقـفن بالرخـصـه كـمـا يقـفي الذيب   لى طالع الـشـــاوي بليلٍ غـــداري
لكن لسب اذيالـهن بـالعـــراقـــيب   رقّـــاصـــــةٍ تبـــغى بزينـه تماري

وحينما يركز الشاعر على الآثار والرسوم التي يتركها الرحل والنسوع على جنبي الناقة وظهرها فهو في الحقيقة يريد أن يؤكد، ولكن بطريقة فنية غير مباشرة، على أنها راحلة صلبة نجيبة متعودة على قطع الفيافي واجتياز المسافات. كذلك التركيز على حركة الذيل هو أيضاً وسيلة فنية للتأكيد على حيوية الناقة ونشاطها، وهذا ما يقصده الحطيئة بقوله في الأبيات التي أوردناها مسبقاً "كأنها بعد الكلالة بالرداف عسير"، أي كأنها تعسر بذيلها خلف الراكب لفرط قوتها ونشاطها. وشبيه بذلك قول زوجة ابن عروج، أحد شيوخ بني لام، من قصيدة لها تمتدح فيها زوجها حيث تربط في الشطر الأول من البيت الثاني بين سمنة الراحلة و"ملافخه للرديف" بذيلها. تقول:

يامـا انقطع في سـاقـتـه من عـسـيفِ   ومن فـاطرٍ تسـبق على الجـيش قِـدّام
عـــقب الشــحم ومـــلافـــخـــه للرديف   قـامت تضـولع مـثل مـرهوص الأقـدام

ولقد جمع كل هذه المعاني طرفة بن العبد في معلقته حيث يقول في وصف الناقة:

تريعُ إلى صـــوتِ الـمُـــهـــيبِ وتتـقي   بذي خُـــصَلٍ روعـــات أكلف مُلْبِــدِ
فطورا بـه خـلـف الزمـــــيـلِ وتـارة   على حَـــشَفٍ كـــالشن ذاو مـــجـــدّد
كـــــأن علـوب النسع في دَأَياتـهـــــا   مـــوارد من خلقـــاء في ظهـــر قـــردد
تلاقى وأحـــــيـــانا تبين كــــأنهـــا   بنائق غُـــرٍّ في قـــمـــيصٍ مـــقـــدد
أحلتُ عليـــهـــا بالقطيع فـــأجـــذمت   وقـــد خب آل الأمـــعـــزِ المتـــوقـــد
فـــذالت كـــمـــا ذالت وليـــدةُ مـــجلس   تـري ربـهـــا أذيال ســـحـل ممدد

قارن البيت الأخير ببقول الريس:

لكن لسب اذيالـهن بـالعـــراقـــيب   رقـــاصـــــة تبـــغى بزينـه تماري

وإضافة إلى المعالجة الشعرية لموضوع الإبل في مقدمات القصائد أو كعنصر من عناصر أخرى تتضمنها القصيدة، هناك شعراء اشتهروا بوصف الأبل وعرفوا بإجادتهم لهذا الفن ولهم قصائد كرسوها فقط لوصف الإبل دون التطرق لأي موضوع آخر. ومن أشهر هؤلاء في الشعر النبطي خلف ابو زويّد السنجاري من الزميل من قبيلة شمر وساكر ابن ناصرالخمشي من ولد سليمان من قبيلة عنزة.

يقول ساكر الخمشي:

أنا شفاتي حايلٍ حيّلوها ... لما تعادل بالاباهر شحمها
مثل القموع دْيودها ما حْلبوها ... صنعة بِدن ما بين فخذه وفمها
امّه ذلول وللجمل ما عْرِضوها ... مير اتهموها بالوضيحي غشمها
شيبا ظهر من كثر ما غربلوها ... ولا هيب رغّايه ضبوح بنسمها
يرجون منها الما الى وردّوها ... لى حل في تالى الركايب وَهَمها
زبن الثنين بسهلةٍ ما مشوها ... لى صنقرت شمسٍ حداهم وَحَمها
الى حداهم واهجٍ وجْدلَوها ... تكسر مضاريس الرسن من عَدَمها
قامت تناتل بالرسن ما قَووها ... وقامت تقَرّط بالمزاهب عْمَمْها
الى امهلوا له بالرسن ونهموها ... دلو الطوال اللي تصرّم وذمها[1]
اسبق من اللي بالولع نفّجوها ... تزبّنت قورٍ تقادح رضمها
عين السروق وسرقته قد لقوها ... نْتِفوا سواعد لحيته ما حشمها
تشدى تِجِضور خفرةٍ جوّزوها ... قليل ميزٍ من نهاره غَشَمها

ويقول خلف ابو زويد:

واشف بالي في قرا ضمر حيل ... ان صرت مع شهب الرهاريه مداد
ياراكبينٍ فوق حيل مراميل ... دحو الاشده والشحم دحو الابداد
لى قيل ها وشذا يْشَحّلِن تشحيل ... مثل النعام اللي مع القاع شراد
حيلٍ يشادن ممرسات المحاحيل ... لى قلت بادن هاض مكنونهن زاد
تلقى على اثرهن قطيع المخاليل ... تدويج يتمانٍ على كرمة اجواد[2]
الى عطن عقب السرا والمحاويل ... أو قيل من قطع الرهاريه بِيّاد
لى نوخوهن العيال المشاكيل ... على طرف قومٍ يحوفون الاذواد
يشدن تحلفز رجّعٍ تالي الليل ... جاهن خبر عرسٍ وهن قبل رِقّاد

ويقول خلف ابو زويد أيضا:

أنا هوى بالي خطاة السجِلّه ... هذي هوى بالي وغاية مرادي
متواسي طوله وعرضه وجله ... حمرا ودمثٍ غاربه للشداد
حمرا ومذنب عينها تقل حَلّه ... تقلب كما المقباس حدر السواد[3]
يا جلّلوا دهم القرب بالاجله ... والما بعيدٍ حال دونه حماد
يا وردّوهن عقلةٍ ما تدلّه ... تتلي عقيدٍ ضاريٍ للمعادي

---

(١) **مثل القموع ديودها**: أثداؤها صغيرة بحجم قمع التمرة لأنها لا تلد ولا ترضع، والإبل المعدّة للركوب لا يطرقها الفحل ولا تحبل، **تُحيّل**. **اتهموها بالوضيحي غشمها**: أم الذلول لم يضرّبها الفحل وإنما ضرّبها الوضيحي فأتت بهذه الذلول، وهذا من المبالغات في الوصف. **تقرّط بالمزاهب عْمَمْها**: لشدة ركض الإبل صار ركابها يقذفون بعمائمهم وأغطية الرأس في الخروج والحقائب حتى لا يطير بها الهواء وتتساقط من على رؤوسهم. **دلو الطوال اللي تصرّم وذمها**: يصف سرعة جريها بالدلو إذا انقطع الرشاء وسقط في البئر السحيقة العمق.

(٢) **لى قيل ها وش ذا**: إذا أحس ركابها بالخطر وتساؤلوا ما الخبر. **تلقى على اثرهن قطيع المخاليل**: بعد إغارة ركابها على إبل الأعداء ونهبها تجد حيران الإبل المنهوبة تائهة في الصحراء تسير على غير هدى ولا تستطيع اللحاق بأمهاتها.

(٣) **تقل حله**: سواد عينها يشبه سواد القدر "الحلّه" الذي يستخدم في الطبخ.

يا برّكوا عوص النضا بالاظله　　　بالقايله دلّى قرينه يداد
يا غاب عنها كافره واسفهله　　　لى تقل له رب المقادير هادي
تشدى تخنطل جادلٍ جاه خله　　　عقب البطا جاها من البعد بادي
يا قنعوا سود القرب بالاجله　　　مع درب شيخٍ ضاريٍ للمعادي
مع سهلة بالقيض يبحل مدله　　　بها ردي الخال ما له جلاد